مذكرات جندي في جيش الرسول

صلى الله عليه وسلم

الدكتور
عماد الدين خليل



200

مذكرات جندي

في جيش الرسول ﷺ

الدكتور

عماد الدين خليل

الطبعة الأولى

٢٠٠٨



رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : (٢٠٠٦/٨/٢٠٢٥)
خليل ، عماد
مذكرات جندي في جيش الرسول صلى الله عليه وسلم / عماد الدين خليل .
- عمان ، دار وائل ، ٢٠٠٦ .
(١٤١) ص
ر.إ. : (٢٠٠٦/٨/٢٠٢٥)
الواصفات: السيرة النبوية / الاسلام / التاريخ الاسلامي / التراجم
* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

****

رقم التصنيف العشري / ديوي : ٢٣٩,٣
ISBN 9957-11-450-6 (ردمك)

* مذكرات جندي في جيش الرسول صلى الله عليه وسلم
* الدكتور عماد الدين خليل
* الطبعـــة الأولى ٢٠٠٨



دار وائـــل للنشر والتوزيع

* الأردن - عمان - شارع الجمعية العلمية الملكية - مبنى الجامعة الاردنية الاستثماري رقم (٢) الطابق الثاني
هـــاتف : ٠٠٩٦٢-٦-٥٣٣٨٤١٠ - فاكس : ٠٠٩٦٢-٦-٥٣٣١٦٦١ - ص. ب (١٦١٥ - الجبيهة)
* الأردن - عمـــان - وســط البلـد - مجمـع الفحيص التجـــاري- هـــاتف: ٠٠٩٦٢-٦-٤٦٢٧٦٢٧
www.darwael.com
E-Mail: Wael@Darwael.Com


بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

اسمي سهيل بن حذيفة الأنصاري .. عربي من خزرج يثرب .. ساقتني الصدفة يوما إلى حشد من الناس يتجمهرون حول شاب قادم من مكة ، لم يكن قد جاوز الثامنة عشر من عمره إلا قليلا .. شدتني كلماته التي كان يلقيها كالسحر .. عذبة سائغة ، تنساب إلى العقل والقلب والوجدان دون أن تطرق طبلة الأذن أو تمر فيها .. ووجدتني أهمس في أذن رجل يقف إلى جواري لا يقل دهشة عني : من الشاب ؟ قال : مصعب بن عمير .. قلت : ومن مصعب هذا ؟ قال : ألم تسمع به ؟ انه مبعوث النبي الجديد إلى مدينتنا لكي يدعو للإسلام.. قلت : وما هذا الذي يقوله؟ إني لأحس أن كلماته ليست مما يقوله العرب في أي مكان من جزيرتهم..

أجاب ، وابتسامة مترعة بالصفاء والفرح تغمر وجهه : طبعا .. وكيف يتاح لأحد من الناس أن يقول مثله وهو إنما يتنزل من السماء !! قلت دهشا : السماء ؟ أجاب بالاطمئنان واليقين نفسه : القرآن .. كلمات الله وآياته البينات ..

أردت أن أواصل أسئلتي التي كانت تكويني كالنار ، لكنه أشار إلي أن أكف عن الحديث ريثما يتاح له أن ينصت لمبعوث الرسول .. ووجدتني أنصت أنا الآخر..

كان مصعب يقف على جذع نخلة مقطوعة ، يطفح وجهه بفرح يصعب وصفه ويقين تعجز أن تمسّه الكلمات ، وكان يمسك بيمينه غصن شجرة يشير به إلى الأفق البعيد وهو يقرأ ﴿**وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ❁ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا ❁ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلا ❁ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلا ❁ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالا وَجَحِيمًا ❁ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ❁ يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلا ❁ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولا ❁ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلا**﴾ .

لم أطق صبرا على مواصلة الإصغاء .. لقد كان جسمي يهتز حيث لم يعد يقدر على تحمل دفقة الروح العنيفة التي أحدثتها كلمات الله .. وقلت للرجل الذي يقف إلى جواري : ما العمل؟ سألني : ماذا؟ قلت : أريد أن أنتمي إلى هذا الدين فكيف السبيل؟ قال ووجهه يتهلل بشرا : تتقدم إليه بعد الانتهاء من حديثه .. تشد على يده وتقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ..

ووجدتني أصرخ : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .. لمحني مصعب فكف عن الحديث وأشار إلي أن أتقدم إليه قليلا : مرحبا بأخي .. تناولت يده اليمنى ورحت أهزها بعنف وأنا أردد : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ..

وسألني مصعب عن اسمي فقلت : سهيل بن حذيفة .. ووجدته يردد اسمي مضيفا إليه (الأنصاري) .. وعندما تراجعت قليلا كنت أرى عشرات من أخواني الخزرجيين ينهالون على الشاب مصافحين ومبايعين ..

كانت شهادة الإسلام تنطلق بقوة ويقين من أفواه القوم .. لقد كان مهرجانا ما ذقت يوما حلاوة كحلاوته التي منحها أرواح أناس كانوا قد فقدوا الفرح واليقين منذ زمان بعيد .

عندما انفض الجمع.. وجدتني أهرع إلى الرجل الذي كان يقف إلى جواري قبل أن يغيبه الطريق .. دلني على الطريق .. قلت له ، علمني .. توسلت إليه ..

قال : تأتني غدا إلى داري قريبا من الطرف الجنوبي لحرة واقم ، عند منازل بني عمرو بن عوف لكي أمنحك بعض التعاليم ..

وذهبت إليه في اليوم التالي ، فحدثني عن الدين الجديد وأجابني عن الكثير من الأسئلة التي كانت تدور في ذهني ، ومنحني المزيد من التعاليم .. ثم ماذا؟ سألته وأنا أودعه عند عتبة الباب .. قال : ندعو إلى الله وننشر دينه القويم ، وننتظر حتى يأتي بنصره الموعود .. قلت : ورسولنا عليه السلام ؟ قال وهو ينظر إلى الأفق البعيد : يقولون

إنه سيهاجر إلينا عما قريب ، وسيقود الدعوة من هنا وبأذرعنا إن شاء الله ... صرخت: سيأتي إلينا ؟

قال : هون عليك وليكن ما قلته لك سرا بيني وبينك خشية أن يصل النبأ إلى قريش ، أو يهود يثرب ..

سألته : يهود يثرب ؟ قال نعم ، لو عرفوا أنه قرر الهجرة إلى هنا فلن يدعوا وسيلة لمنعه وإحباط خطته إلا اعتمدوها .. إن قدومه خطر عليهم ، وهم يعرفون هذا جيدا ، وقد كانوا يتوقعون أن يكون الرسول الجديد منهم .. من بني إسرائيل ، ولكن الله خيب ظنونهم ، فأنت تعرف كيف أن بني إسرائيل لم يعودوا قادرين على قيادة البشرية .. لقد تغلغل الفساد في كيانهم حتى النخاع..

سألته : وهل ستدعه قريش يغادر مكة كما يريد ؟

أجاب وموجة من القلق والانقباض تكتسح ملامحه : إرادة الله فوق كل الإرادات وإذا ما أراد سبحانه شيئا فلا راد لقضائه .. إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) يحسب لكل شيء حسابه ، ومن وراء هذا كله تجئ حماية الله سبحانه لكي تصل به إلى الهدف المرتجى .

ووجدتني وأنا أغادر المكان أكافح في طبقات عميقة من نفسي لكي أجعل عناصر الأمل والثقة تكتسح اليأس والحزن والإحباط .. ودخلت داري في أقصى شمالي يثرب وأنا أردد دون وعي مني : إنها إرادة الله .. إنها إرادة الله !!

سألتني زوجتي : ما بك يا أبا سليم ؟ قلت : لاشيء .. قالت : لا والله ، إنك لتكتم عني أمرا ، وإني لأرجو أن أعرفه كما هو !!

قلت : لقد انتميت إلى الدين الجديد يا أم سليم ، وتلك منة كبيرة منّ بها الله علي أن شرح صدري للإسلام .

وتمكنت عبر الأسابيع التالية ، ليس فقط أن أهدى زوجتي للدين الجديد .. بل عدداً كبيراً من عشيرتي التي أنتمي إليها .. وكنت أحس باعتزاز عميق كلما نظرت إلى شباب العشيرة ، وهم في العنفوان قدرة على تحمل أعباء العقيدة التي انتموا إليها ، ورغبة عاتية في الدفاع عنها والاستماتة دونها .. ووجدتني أردد كلما نظرت إلى بعض من هؤلاء الذين تمكنت من كسبهم إلى صف الإسلام ، حديث نبيي عليه السلام (لئن يهدي بك الله رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها).. وهاأنا ذا قد هدى الله بي عصبة من الرجال .. فالحمد لله ..

ويوما بعد يوم يزداد الأمل بوصول الرسول عليه السلام .. ولم تعد مسألة هجرته إلى يثرب سرا من الأسرار ، بعد إذ هاجر معظم أصحابه .. كانت قلوبنا ترتجف خوفا وإشفاقا كلما تذكرنا أن بمقدور قريش أن توقفه عن تحقيق هدفه ، وأن ترغمه على البقاء في مكة حيث الحصار الرهيب .. بل ربما.. استغفر الله .. ولن يكون ذاك.. وكنت كلما عصفت الهواجس بي استعيد حديث الرجل الذي زرته في بيته منذ أسابيع وأجدني أردد : إن إرادة الله أقوى من كل إرادة ، وأنه إذا أراد شيئا فلا راد لقضائه..

كنت وعدد كبير من الأنصار نخرج فجر كل يوم إلى مشارف يثرب بانتظار القادم ورفيقه الصدّيق ، نحمل طعامنا ونبقى هناك حتى تأذن الشمس بالمغيب ، فنقفل عائدين على أمل أن نخرج ثانية فجر اليوم التالي !

ظللنا على ذلك أياما حتى حانت ساعة الرجاء الكبير .. أحقا هو رسول الله يجتاز حصار الوثنية ومطاردتها الشرسة ويصل إلينا ورفيقه الصدّيق سالمين غانمين؟ .. حمدا لك يا رب .. وأنا أحمد الله كانت تطرق سمعي نغمات حلوة لنشيد جميل كانت النسوة والأطفال يستقبلون به رسولهم الأمين :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع...

ولشدة شوقي فقدت اتزاني المعهود ودفعت الشبان الذين كانوا يتراصون حولي يعنف محاولا أن أشق طريقي إلى رسول الله لكي ألقي نظرة عليه وأتعرف على ملامحه الكريمة.. وتمكنت بعد لأى أن أصبح قريبا منه .. كان وجهه يشع نورا وصفاء ، وكانت ابتسامة حلوة عميقة يصعب وصفها تغمر ملامحه ، أما عيناه ، فقد وضعت في غورهما العميق أسرار الكون كلها وآمال السماوات والأرض .. ووجدتني أصرخ .. أشهد أنك رسول الله !! وإذ بيد حانية تربت على كتفي .. هون عليك يا سهيل، فكلنا نشهد بأنه رسول الله .. التفت إليه فإذا به سعد بن عبادة .. كان وجهه يطفح بشرا وسرورا .. انكببت على وجهه لثما وتقبيلا وأنا أردد .. هنيئا لك يا أخي .. هنيئا لنا جميعا بوصول قائدنا ورسولنا سالما .. لقد تحقق الحلم يا سعد .. لقد تحقق الحلم .. قال بصوته الهادئ : الحمد لله وحده .. الحمد لله وحده..

(٢)

حمدا لله .. لقد نزل الأذن بالقتال .. وكنا نتحرق شوقا لرفع السلاح بوجه الوثنية التي أعلنت الحرب على الدين الجديد منذ لحظاته المبكرة .. نتحرق شوقا نحن الذين ورثنا عشق القتال كابرا عن كابر ..

جاءني صديقي أبو سلمة ووجهه يطفح بشرا وقال : ألم تسمع ؟ قلت : ماذا ؟ قال : لقد جاءت الإشارة ، ومعها الفرصة التي كنا ننتظرها بصبر فارغ ..

تساءلت : أية إشارة تعني ؟ فراح يتلو ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ❖ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ❖ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ ..

حقا .. يا أبا سلمة ؟ ووجدت يدي تمتد إلى مقبض سيفي وتستله من الغمد .. ها قد جاء دورك.. إن قريش لم تعط أية فرصة للكلمة الهادية لكي تصل إلى أسماع الناس فتعلمهم كيف يتوجب على القيادة الضالة أن تذعن للحق ، أو أن تفسح الطريق لمن يعرف كيف يمنح الإنسان حريته التي وهبها إياه الله ..

قال أبو سلمة وهو يبتسم : لا تضع وقتك في الحديث إلى سيفك .. إن أمامنا مهاما كثيرة وإن إخواننا قد بدأوا عملية تدريب واسعة في ساحات المدينة لكي يزيدوا من قدراتهم على اعتماد السلاح.. فهيا بنا إليهم ..

سألته متلهفا : والقتال ؟ قال : علمه عند الله ورسوله .. هيا بنا ..

دلفنا إلى إحدى الساحات بين أشجار النخيل جنوبي المدينة فوجدنا مجموعة من المهاجرين والأنصار تمارس التدريب .. بعضهم ينطلق بفرسه بأقصى ما يستطيع وبعضهم يضرب بالسيف ، وآخرون يصطرعون .. وثمة فئة رابعة وقفت صفا متراصا

وراحت ترمي بالنشاب .. ولفت انتباهي رجل موغل في العمر وجدته يحمل السلاح ويمارس التهديف راكضا من مكان إلى مكان .. تقدمت منه قليلا فإذا به عقبة بن عامر ذلك الشيخ الجليل الطاعن في السن .. سألته دهشاً : تختلف بين هذين الموضعين وأنت شيخ كبير ؟ قال ، وهو يمسح قطرات من العرق انتشرت على جبهته الواسعة : لأمر سمعته من رسول الله .. قلت : وما ذاك ؟ قال: سمعته (صلى الله عليه وسلم) يقول: من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا !!.. ربّت على كتفه وانطلقت وأبو سلمة بشوق عارم لنبدأ العمل زيادة في قدراتنا القتالية أو تدريبا للذين لم يتمكنوا بعد من استخدام السلاح .. ضربا بالسيف وطعنا بالرمح وإرسالا للنبال والسهام وتمرسا على ركوب الخيل ، وتمكنا من إصابة الأهداف .. وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يمر بين الحين والآخر على هذه المجموعة من المقاتلين أو تلك ، يشاركها الاستعداد والتدريب ، ويلقي في عقولها وأفئدتها المزيد من التعاليم .. وسمعناه يقول : (أعدوا لهم ما استطعم من قوة ، ألا أن القوة الرمي ، ألا أن القوة الرمي ، ألا أن القوة الرمي) .. وسمعناه يقول : (من رمى بسهم في سبيل الله فهو عدل رقبة محررة).. وقال لجماعة تقف إلى جوارنا وتمارس التدريب على الرمي بالسهام : (إن الله عز وجل ليدخل بالسهم الواحد ثلاث نفر الجنة : صانعه يحتسبه في عمل الخير والرامي به ومنبله) .. وكانت كلماته عليه السلام تزيدنا اندفاعا في التدريب ورغبة في التمكن من أنماط القتال كافة .. وكان يزيدنا شوقا للقتال وتحرقا إليه ما كان رسولنا عليه السلام يحكيه لنا عن الأجر الكبير الذي ادخره الله سبحانه للمجاهدين والمصير العظيم الذي ينتظرهم هناك .. عند الله ..

كانت كل كلمة يقولها عليه السلام تشعل النار في أرواحنا وتفتح باب الشهادة الواسع على مصاريعه .. كان يقول لنا (جاهدوا في سبيل الله فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ينجي الله به من الهم والغم) وينادينا (إن الله تعالى يقول : ما من عبد من عبادي خرج مجاهدا في سبيلي إلا ضمنت له أن أرجعه مأجورا غانما .. أو شهيدا أغفر له وأرحمه وأدخله الجنة) ويعلمنا (من جرح في سبيل الله ختم له بخاتم الشهداء له

نور يوم القيامة ، ويأتي جرحه له لون الزعفران وريح المسك يعرفه بها الأولون والآخرون ويقولون : فلان عليه طابع الشهداء) ويحذرنا (من مات ولم يغز أو يجهز غازيا أو يخلف غازيا في أهله بخير أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة).. لقد نفد صبري .. همست في أذن أبي سلمة ، وأنا التقط سهما من الأرض لكي أرمي به هدفا بعيدا .. قال : رويدك يا هذا ، فكل آتٍ قريب ..

ولقد صدق الرجل وعده ، فبعد أيام قلائل ، ولم يمض على دخول رمضان سوى يومين ، جاءني ضحى وقال وهو يبتسم : ها قد استجاب الله لدعوتك وحقق أمنيتك!

صرخت : كيف يا أبا سلمة .. كيف ؟ قال : لقد بدأت المجابهة المسلحة ، وقد اختار الرسول عليه السلام أن يوجه سلسلة من الضربات السريعة ضد قوافل قريش وخطوط تجارتها لكي يربكها ويلقي الرعب في قلوبها ويحطم معنوياتها ، ولكي يحصل المسلمون في الوقت نفسه على مورد للتموين والتسليح يسدون به متاعبهم المالية التي تعرف كم يعانون منها بعد إذ جاءنا إخواننا المهاجرون مخلفين وراءهم في مكة كل شيء..

قاطعته قائلا : ألا ترى معي أن الرسول عليه السلام ربما استهدف . كذلك . بضرباته السريعة هذه إنذار أعداء الدولة الناشئة من غير قريش وحلفائها ، كاليهود في الداخل وجماعات البدو في الخارج ، بأن المسلمين قادرون على الرد ومستعدون للتصدي لأي عدوان يستهدف منجزاتهم التي حققوها طيلة أربعة عشر عاما من الجهد والعناء ؟ قال : بكل تأكيد ، ثم أن هذه الهجمات ستكون أشبه بمناورات حية يجس المقاتل المسلم عن طريقها نبض أعدائه ويختبر إمكاناتهم الحربية ، ماديا ومعنويا ، ويمارس المزيد من التدريب وتنمية قدراته وطاقته على الصمود..

قاطعته مرة أخرى : ولكنك لم تحدثني عما جرى ..

قال : انطلق حمزة بن عبد المطلب فجر هذا اليوم على رأس ثلاثين رجلا من المهاجرين ليعترض قافلة لقريش عند ساحل البحر .. وصدر الأمر إلى عبيدة بن الحارث لكي يتهيأ لقيادة ستين رجلا إلى بطن رابغ لكي يوجه ضربة أخرى لتجارة قريش!!

ومضت الأيام والأسابيع وسرايا المسلمين تنطلق بين يوم وآخر لكي تؤدي مهماتها المرسومة .. وقد قاد الرسول عليه السلام بنفسه إحدى هذه السرايا على رأس عدد من أصحابه وحقق بعض الأهداف وقفل عائدا إلى المدينة دون أن يلقى من عدوه كيدا . وانطلق على رأس سرية أخرى حتى انتهى به المطاف إلى العشيرة قريبا من ينبع فأقام بها أياما ووادع بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة ثم قفل عائدا إلى المدينة . وبعد أيام معدودة من عودته قام كرز بن جابر بغارة على مواشي المدينة وأبلها التي تسرح في أطرافها فلاحقه الرسول عليه السلام بنفسه حتى بلغ وادي سفوان قريبا من بدر. ثم ما لبث (صلى الله عليه وسلم) أن جرد اثني عشر مقاتلا من المهاجرين بقيادة عبد الله بن جحش إلى وادي نخلة بين مكة والطائف لضرب تجارة قريش ، وقد توغل الرجل وأصحابه إلى هناك وهاجموا قافلة مكية وقتلوا أحد أفرادها وأسروا اثنين آخرين ، ثم قفلوا عائدين بالبضائع وبالأسيرين إلى المدينة ..

والحق أن هذه السرية جاءت لكي تكون بمثابة الجسر الذي سيجتازه صراع المناوشات بيننا وبين الوثنية صوب القتال المنظم المكشوف . فلقد كشفت هذه السرية بسبب توغل مقاتليها بعيدا على طريق التجارة المكية ـ اليمنية ، مدى خطورة دولتنا الناشئة على تجارة مكة خاصة ووجودها الوثني عامة ، كما أن الاشتباك الذي وقع ، لأول مرة ، بين الطرفين ، وأدى إلى قتل وثني وأسر آخرين أبان عن رغبة المقاتلين المسلمين في رفع السلاح بوجه الوثنية دونما تردد أو مساومة .. وبمرور الوقت أخذ يسيطر علينا إحساس أكيد بأن معركة كبيرة حاسمة لابد أن تشتعل نارها عما قريب بيننا وبين المشركين ، وأن ساعة الفصل والفرقان قد حانت..

كنا نتحرّق شوقا للقاء كهذا ، وكانت استعداداتنا التدريبية قد أوشكت على انتهاء .. وكنا نحن الأنصار على وجه الخصوص ننتظر بصبر فارغ الفرصة التي

نبين فيها للرسول عليه السلام صدق وعدنا الذي منحه إياه زعماؤنا عند العقبة وأننا فعلا أبناء الحلقة ورثناها كابر عن كابر .

وكنت أجدني فيما يرى النائم وأنا أحمل سيفي وأهوي به بعنف لكي أقطف الرؤوس التي آذت الرسول عليه السلام وسخرت من أتباعه.. وأستيقظ وأنا أردد : إن وعد الله حق.. إن وعد الله حق !!

(٣)

وصلتنا قبل أيام قلائل معلومات تقول بأن قافلة كبيرة تضم ألف بعير قد قدمت من الشام في طريقها إلى مكة يقودها أبو سفيان في ثلاثين أو أربعين تاجرا مكيا ..

وبمبادرة لا تردد فيها قال الرسول عليه السلام مخاطباً ايانا: (هذه عير قريش، فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها) ..

ونظرا إلى أن نداء الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يكن أمرا ملزما بل كان ندبا ، ونظرا إلى أن أحدا منا لم يكن متأكدا تماما من أن لقاء مسلحا حاسما سيتمخض عن التحدي الجديد هذا ، فقد خرج بعض المسلمين . وكنت من بينهم - بقيادة رسولنا نفسه عليه السلام لمهاجمة القافلة ، بينما تخلف بعضنا الآخر .. ولم يكن السلاح الذي حملناه معنا يكفي سوى لمهاجمة قافلة بالحجم الذي تحدثت عنه المعلومات . أما عددنا فقد بلغ ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا..

انطلق الرسول بنا غربا باتجاه الساحل ، بعد أن استخلف على المدينة أبا لبابة وأقام عمرو بن ام كلثوم إماما على الناس في الصلاة .. ودفع اللواء الأبيض إلى مصعب بن عمير ، الداعية الشاب ، الذي بفضله كان انتمائي لهذا الدين . وأما الرايتان السوداوان فقد حمل علي بن أبي طالب إحداهما وتدعى العقاب ، أما الأخرى فقد حملها بعض الأنصار . ووزع الرسول عليه السلام السبعين بعيرا التي كانت بحوزتنا علينا ، كل ثلاثة يتناوبون واحدا منها ، ولم يكن ثمة من الخيول سوى اثنين فحسب..

عندما وصلنا قريبا من بدر حيث طريق القوافل السالك بين مكة والشام بعثني الرسول عليه السلام بصحبة أخ من المهاجرين لنتحسس له الأخبار عن قافلة أبي سفيان التي كنا نظن أنها لا تزال في المنطقة ..

التقينا أكثر من اعرابي وتجمعت لدينا معلومات شبه مؤكدة من أن أبا سفيان قد استطاع أن يفلت من قبضة المسلمين بإسراعه وتجنبه الطريق الداخلي صوب الساحل وأنه أرسل إلى مكة على جناح السرعة ، أحد رجال القافلة : ضمضم بن عمرو الغفاري وأمره أن يأتي قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمدا قد تعرض لها في الطريق.. إذن فإن قريشا أغلب الظن ، ستنطلق لمهاجمة المسلمين ووقفهم عند حدهم .. فما دامت سراياهم قد حققت للدولة الجديدة في المدينة طيلة الأشهر السابقة سلسلة من الانتصارات العسكرية والاقتصادية والمعنوية والسياسية ضد قريش وثبتت كلمة الإسلام ورايته في أعماق الصحراء فإنه لابد لقريش أن ترد بنفس الأسلوب وتعلم العرب الذين ينتمون إليها أن الكلمة كلمتها وأن الصحراء ستظل موطئ أقدامها دون منازع ..

عدت وصاحبي لكي نخبر الرسول عليه السلام بالمعلومات التي تجمعت لدينا ، فانطلق بنا جميعا متوغلا في عمق الصحراء ثم ما لبث أن عسكر بنا قريبا من ماء بدر .. لقد قبل التحدي (صلى الله عليه وسلم) .. واذن فإن الفرصة التي كنت وأصحابي نتحرق شوقا إليها قد دنا موعدها المرتجى.. هنالك حيث مجابهة الموت محك كل إيمان ومنخل كل رجل..

عندما حل المساء بعث الرسول عليه السلام ثلاثة من رجاله المعتمدين وهم الزبير بن العوام وعلي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص على رأس جماعة من المسلمين ليستطلعوا جلية الموقف ويعرفوا شيئا عن تحركات القوم ، وكان ثمة ما يراود النفوس في أن القافلة ما تزال قريبة .. فتمكنوا من إلقاء القبض على اثنين من سقاة قريش جاءوا بهما إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) معتقدين أنهما من أتباع أبي سفيان . لكنهما أكدا انتماءهما للجيش القرشي الذي أصبح يعسكر قريبا من المسلمين، تحجبهم التلال والكثبان عنهم . سألهما الرسول عليه السلام : أخبراني عن قريش . قالا : هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى . سألهما : كم القوم؟ قالا: لا ندري ، فسألهما : كم تنحرون كل يوم ؟ أجابا: يوما تسعا ويوما عشرا . فقال (صلى الله عليه وسلم) موجها حديثه إلينا : القوم بين التسعمائة والألف . ثم سألهما :

فمن فيها من أشراف قريش ؟ فطفقنا يستعرضان عددا من قادة قريش فيهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبدود .. وغيرهم..

حينذاك أقبل الرسول (صلى الله عليه وسلم) علينا وقال : هذه قريش ألقت إليكم أفلاذ أكبادها ..

لقد عرف الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، أنه رغم ضياع الهدف القريب المتمثل بقافلة أبي سفيان فإن عليه أن يقود أصحابه إلى هدف أبعد : أن تظل كلمتهم تتردد في جنبات الصحراء ، وأن لا يتراجع وجودهم العسكري الذي بنته السرايا السابقة صوب المدينة فتكون الهزيمة بعينها في نظر العرب جميعا . ورغم قلة السلاح ونقص الاستعداد فإن الرسول عليه السلام كان يجد ألا مناص من التوغل في الصحراء لتحقيق هذا الهدف البعيد وكأنه بإحساسه الصادق العميق كان يرى الهدف الذي خرجت قريش من أجله والذي تجاوز منطق الدفاع عن مصالحها التجارية المتمثلة بحماية قافلة أبي سفيان ، إلى تحدي المسلمين ، فإن لم يتصد لها الإسلام في تحد حاسم فإن نكسة خطيرة ستصيب الدعوة والدولة الإسلامية على السواء .

أعلن الرسول عليه السلام تفاصيل الأنباء التي وصلته واستشارنا في الأمر. فقام أبو بكر الصديق فقال واحسن ، وقام عمر بن الخطاب فقال واحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال (يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ **فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ** ﴾ ولكن ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون** ﴾ ، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونها حتى تبلغها)!!

وبهذا عبر المهاجرون على لسان قادتهم عن رغبتهم العميقة في القتال دون الدعوة وإطاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي كان مشوقا لمعرفة رأينا نحن جماعة الأنصار .. إذ ما لبث أن نادانا : أشيروا علي أيها الناس !!

فقام زعيمنا سعد بن معاذ فقال : (قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق.. فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف عنك رجل واحد ، فسر على بركة الله) .

كان سرور رسول الله عميقا لهذا الموقف ، انعكس على وجهه الشريف ثقة وأملا.. وقال لنا : سيروا وابشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين. والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم. وما لبث أن تقدم بنا حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به، فما كان من الحباب بن المنذر إلا أن سأله : يا رسول الله ارأيت هذا المنزل ؟ أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ أجاب الرسول عليه السلام: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. فقال الحباب: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه ثم نبني عليها حوضا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون.

قال الرسول عليه السلام وهو يربت على كتفيه : لقد أشرت بالرأي .. وما لبث أن أمر بتنفيذ خطته . وعرض عليه زعيمنا سعد بن معاذ أن يقام له عريش يتولى منه قيادة المعركة ، فنفذ الرسول عليه السلام رأيه هو الآخر ..

وما لبثت السماء أن أمطرت مطرا خفيفا فلبدت أرض الصحراء بما يتيح لنا الحركة السريعة فوقها .. وراح نبينا عليه السلام يدعو الله : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني .

وعندما حل الفجر صلى بنا عليه السلام ثم راح بعدها ينظمنا صفوفا ويحرضنا على القتال..

كنت أحس بفرح عميق يجتاحني وأنا استمع لكلمات الرسول (صلى الله عليه وسلم).. وكأنني مقبل على عرس.. أليست هي دانية منا.. قريبة إلينا.. إحدى الحسنيين: النصر أو الجنة؟! أو ليس هو قائم هناك.. على بعد خطوات.. جسر الشهادة

الذي ينقل أولئك الذين يختارون اجتيازه إلى رضوان الله الكبير، وظله الذي وسع السماوات والأرض ، ومحبته التي تعدل الدنيا وما فيها؟!

فأهلا بها فرصة منتظرة طال الشوق إليها .. ومرحبا به من مصير!!

ووجدتني أتلو مع نفسي وأنا اهتز انفعالا ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ بلى إن الله على نصرهم لقدير .

(٤)

لم يشأ الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يبدأ القتال قبل أن يعرف ما الذي يجري في معسكر العدو.. إنه عليه السلام لا يخطو خطوة إلا بعد أن يضع لها كافة الضمانات ويجمع عنها ما يطيق جمعه من معلومات .. رغم أنه موعود بنصر الله .. يبدو أنه يريد أن يعلمنا ويعلم الأجيال من بعدنا كيف تكون طرائق العمل حماية لدين الله في الأرض وإعلاء لكلمته في العالم واكتساحا للقوى التي تقف في طريق النور الجديد ، والظلمات التي تتآمر عليه .

أرسل عمار بن ياسر وابن مسعود فأطافا بالمشركين عن كثب ثم رجعا لكي يقولا للنبي عليه السلام : يا رسول الله ، القوم مذعورون فزعون ، إن الفرس ليريد أن يصهل فيضرب وجهه مع أن السماء تسح عليهم .. وأن ثمة خلافا ينشب بين قادة قريش، بعضهم يريد التخلي عن القتال والعودة إلى مكة بعدما عرفوا من نزول المسلمين قريبا منهم ، وبعضهم يصر على الحرب وعلى رأسهم أبو جهل..

وفي صبيحة الجمعة ، السابع عشر من رمضان ، تقدم الأسود بن عبد الأسد المخزومي الذي عرف بشراسة الطبع وسوء الخلق وقال بصوت أجش : أعاهد الله لأشربن من حوضكم أو لأهدمنّه أو أموتن دونه!! فما كان من حمزة بن عبد المطلب إلا أن انقض عليه وتمكن من قتله في الحوض نفسه !!

وبرز عتبة بن ربيعة يحف به أخوه شيبة وابنه الوليد ودعا إلى المبارزة .. فوجدتني مندفعا واثنين من أصحابي .. فصاح القريشيون : من أنتم ؟ قلنا : رهط من الأنصار . قالوا : ما لنا بكم حاجة ، ونادى مناديهم : يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ، فاستجاب الرسول عليه السلام لهذا التحدي وأمر عبيدة بن الحارث وحمزة وعليا أن يتصدوا لهم . وسرعان ما تمكن حمزة من قتل شيبة وفعل علي ذلك بغريمه الوليد . أما عبيدة فقد جرح خصمه وأصابه هو الآخر بجرح مميت ، فانقض علي وحمزة على الفتى القريشي وأجهزا عليه وحملا عبيدة إلى معسكرنا حيث توفي رحمه الله ..

استفزت هذه البداية كلا المعسكرين فزحفا نحو بعضهما وأصدر الرسول عليه السلام أوامره إلينا ألا نبدأ الهجوم حتى يأذن لنا ، ورجع إلى العريش يصحبه الصديق وراح يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول (اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد) .. فيرد عليه أبو بكر : يا نبي الله بعض منا شدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك !! وما لبث ملامح الرسول عليه السلام أن اكتست بالبشر وقال للصديق (أبشر أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع).. وانطلق عليه الصلاة والسلام يحضنا على القتال (والذي نفسي بيده لا يقاتلنهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة).. وكان عمير بن الحمام يقف قريبا مني وبيده تمرات يأكل منهن وسمعته يخاطب نفسه : بخ : بخ : أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ؟ ثم قذف التمرات وأخذ سيفه وراح يقاتل القوم بضراوة حتى قتل..

وأنا أنقض على اثنين من المشركين بسيفي لمحت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يجالد الأعداء بنفسه ببأس شديد ويتقدم الصفوف ، ثم ما لبث أن أخذ حفنة من الحصباء واستقبل قريشا ضاربا بها وجوههم وهو يصيح : شاهت الوجوه .. ثم مناديا إيانا : شدوا !!

كانت صيحته بمثابة النار التي ألهبت قدراتنا وفجرت رغبتنا في الموت .. انقضضنا على القوم تدفعنا موجة من الإيمان العارم ورغبة عميقة في الاستشهاد .. ورحنا نحصد صناديد قريش ونأسر أبطالها .. وحمل معاذ بن عمرو بن الجموح على أبي جهل وقد لجأ إلى مجموعة كثيفة من الأشجار يحيط به عدد من أتباعه فضربه فقطع ساقه .. كنت بعيدا بعض الشيء عن المكان الذي يصطرع فيه الرجلان ، أقاتل أعداء الله بلا هوادة فلم يتح لي أن أهرع لكي أعين معاذاً على مجابهة خصمه .. لكنه حدثني فيما بعد عما جرى بعد ذلك فقال : (ضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي فتعلقت بجلدة من جنبي وأجهضني القتال عنه ، فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي فلما آذتني جعلت عليها رجلي ثم تمطيت حتى طرحتها).. فسألته : من

قتل أبا جهل إذن ؟ قال : رجل من الأنصار يدعى معوذ ضربه حتى أصابه بجرح لم يستطع معه حراكا ، ولكن أحد المشركين باغت معوذ فقتله .. ومر عبد الله بن مسعود بأبي جهل وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة فوضع رجله على عنقه وقال : هل أخزاك الله يا عدو الله ؟ فأجاب أبو جهل : لقد ارتقيت يا رويعي الغنم مرتقى صعبا .. فما كان من ابن مسعود إلا أن إحتز رأسه ..

شددنا النكير على المشركين وضيقنا الخناق عليهم .. وكانت رؤية رسول الله عليه السلام وهو يجالد القوم كفيلة بأن تمسح التعب والإعياء عنا وأن تمنحنا قدرات إضافية على مواصلة القتال .. وما لبثت الهزيمة أن حاقت بالمشركين الذين أخذوا يفرون من ساحة القتال لا يلوون على شيء .. وانكشف القتال عن انتصارنا الحاسم..

أحصينا خسائر المشركين فكانت سبعين قتيلا ومثلهم أسرى ، أما خسائرنا فقد بلغت أربعة عشر شهيدا ، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار ، فيهم ثلاثة من أصحابي الذين هداهم الله بي للإسلام ، فكان حزني والحق يقال مضاعفا لولا أن فرحة الانتصار امتصت شيئا منه..

ورأينا رسولنا الكريم يلتمس رأس أبي جهل فجاءه به عبد الله بن مسعود فحمد الله .. فهاهو رأس الوثنية يمرغ في التراب .. ذلك الذي كان أشد القرشيين عداء لدين الله ورغبة في تعذيب المنتمين إليه واضطهادهم وفتنتهم عن دينهم .. هاهو الآن مجرد كرة تافهة تدوسها الأقدام دون أن يعرف صاحبها أحد !!

وأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بطرح قتلى المشركين في قليب قريب .. وسمعناه يناديهم : (يا أهل القليب ، يا عتبة بن ربيعة وياشيبة بن ربيعة ويا أمية بن خلف ويا أبا جهل : هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ فإني وجدت ما وعدني به ربي حقا)!!

سألناه : يا رسول الله أتنادي قوما قد جيفوا ؟ قال : ما أنتم باسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني !!

بعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة إلى المدينة على جناح السرعة ليبشرا أهلها بانتصار المسلمين .. وبعد أيام قفلنا عائدين إلى المدينة ومعنا أسرى المشركين.. كان الفرح العميق بالنصر قد مسح على متاعبنا وجراحنا وسهرنا الطويل ، وكانت ملامح البشر تطفح من وجوهنا .. وعند الروحاء قريبا من المدينة تلقانا إخواننا الذين لم يخرجوا للقتال ، لهذا السبب أو ذاك ، يهنئون الرسول عليه السلام وإيانا على ما فتح الله علينا..

وما أن وصلنا المدينة حتى فرق الأسرى بيننا وأوصانا بهم خيرا .. وكان من نصيبي واحد منهم .. وعدت إلى داري وهو في صحبتي فلما قرعت الباب وفتحته زوجتي أرادت أن تصرخ لفرحتها بانتصار المسلمين وبعودتي سالما .. لكنها فوجئت بالرجل معي فأشارت إليه مضطربة وكأنها تقول ما هذا ؟ وأسرعت بالقول : انه واحد من سبعين أسيرا وزعهم رسول الله عليه السلام بيننا وأوصانا بهم خيرا .. حتى يحين الوقت الذي يمضي فيهم أمره .. وأرادت أن تسألني عما جرى هناك في بدر ولمحت في عينيها عشرات التساؤلات .. ولكني قلت لها : دعينا الآن نرتاح قليلا وسوف أحدثك فيما بعد عن كل شيء.. وأسرعي بتهيئة مريسك اللذيذ فإن الجوع يكاد يقتلنا .. إنني أرغب في أن يذوق الرجل طعام أهل يثرب وأن يعرف فنهم في الطبخ لكي لا يقول أن مكة تتفوق على العرب في كل شيء..

ضحك الرجل بامتنان وكأنه ما كان يتوقع أبدا معاملة طيبة كهذه .. وبعد أيام بعثت قريش في فداء أسراها ففودى كل أسير بمبلغ يتراوح بين الألف والأربعة آلاف درهم ، ولم يكن بعضهم يملك شيئا .. وكان صاحبي من بينهم .. فمن عليهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

(٥)

راحت قريش تعد العدة كي تثأر منا في أعقاب الهزيمة النكراء التي منيت بها في بدر. وأقسم أبو سفيان أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدا . فخرج في ذي الحجة على رأس مائتي راكب من قريش تدفعه رغبة انتقامية عاتية ليبر بيمينه ، وعندما بلغ المدينة تسلل ليلا إلى أحياء بني النضير وطرق الباب على حيي بن أخطب ، أحد زعمائهم ، فدفعه خوفه إلى أن يغلق الباب ، فانصرف أبو سفيان إلى سلام بن مشكم ، سيد بني النضير ، فاستضافه وقدم له بعض المعلومات .

وفي فجر اليوم التالي قام أبو سفيان بإرسال جماعة من أصحابه إلى ناحية (العريض) في المدينة فحرقوا نخيلها وقتلوا رجلا من الأنصار وحليفا له وهما يعملان في حرث لهما ، ثم انصرفوا راجعين . وعندما انتشر نبأ الهجوم بين الناس خرج الرسول (صلى الله عليه وسلم) بنفسه لطلبهم ، فلما أحس أبو سفيان وأصحابه أنهم مدركون تخففوا من ازدواهم ومعظمها من السويق ، طارحين إياها في عرض الطريق وتمكنوا من النجاة .

ولما كانت معركة بدر قد شددت من قبضتنا على طريق مكة التجاري إلى الشام ، قررت قريش من أجل أن تجتاز هذا الحصار أن تسلك في تجارتها طريقا آخر دلها عليه بعض العارفين ، وهو الذي يتجه إلى العراق ، صوب الشمال الشرقي ، بعيدا عن يثرب . وقد عبر صفوان بن أمية عن مخاوفه للقرشيين بقوله : أن محمدا وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا ، فما ندري كيف نصنع ، وأصحابه لا يبرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعوهم ودخل عامتهم معه ، فما ندري أين نسلك ؟ وإن أقمنا أكلنا رؤوس أموالنا ونحن في دارنا هذه.. إنما نزلناها على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى أرض الحبشة في الشتاء..

وقد خرجت إحدى قوافلهم تحمل مقادير كبيرة من الفضة يقودها عدد من الرجال فيهم أبو سفيان ، ويدلها على الطريق الجديد فرات بن حيان . إلا أن رسولنا

عليه السلام سرعان ما بلغته أنباء القافلة الغنية فبعث على جناح السرعة سرية يقودها زيد بن حارثة .. وقد كان لي لحسن الحظ شرف العمل معها .. وبسهولة تمكنا من مباغتة القافلة في منطقة من نجد تدعى (ماء القردة) فهرب رجالها تاركين بضائعهم لقمة سائغة بين أيدينا فعدنا بها إلى المدينة كي يقتسمها المسلمون جميعا ..

ويبدو أن هذه المقدمات كانت تسوق قريشا إلى الإسراع بتوجيه ضربة قاصمة للمسلمين انتقاما لما لحقهم بمعركة بدر وكسرا للحصار الاقتصادي الذي ازدادت وطأته في أعقاب بدر وذي القردة ، واجتمع عدد من زعمائها ممن أصيب أقرباؤهم ببدر، بأبي سفيان ، وتم الاتفاق على أن يتنازل أهل مكة عن أموالهم في القافلة التي قدم بها أبو سفيان من الشام قبيل معركة بدر لاستخدامها في الإعداد للمعركة المرتقبة .

استنفرت قريش كل قادر على حمل السلاح من أبنائها ، ودعت الأحباش وحلفاءها من قبائل كنانة وأهل تهامة وثقيف للانضمام إليها ، فبلغوا ثلاثة آلاف رجل، بضمنهم سبعمائة دارع ومائتا فرس وثلاثة آلاف بعير .. واستدعيت النساء للخروج كي يثرن الحمية في نفوس المقاتلين ويمنعنهم من الفرار . وتولى القيادة أبو سفيان فسار بهم طاويا الصحراء حتى نزل قريبا من جبل أحد شمالي المدينة.

عندما سمع الرسول عليه السلام نبأ التحرك القريشي بعث ثلاثة من أصحابه ليأتوه بأخبارهم ، وأمر بتشديد الحراسة على المدينة ، وعرض علينا أن نظل في المدينة وندع قريشا حيث نزلت (فإن أقاموا أقاموا بشر مقام وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها) وكان رسولنا (صلى الله عليه وسلم) بعيد النظر في خطته هذه .. فحيثما كان المهاجمون أكثر عددا من المدافعين كان الأجدر أن يحتمي هؤلاء داخل مدنهم كي يتمكنوا من إنزال ضرباتهم بالعدو والذي سيجد نفسه مضطرا إلى التشتت في أنحاء المدينة التي لا يعرف الكثير عن منعطفاتها وزواياها ، هذا فضلا عن أن قتالا كهذا سيتيح حتى للنساء والأطفال أن يشاركوا فيه..

إلا أن عددا من إخواننا الذين فاتهم شرف القتال في بدر ، وخاصة الشباب منهم ألحوا بالخروج وقالوا : يا رسول الله أخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرونا أنا جبنا عنهم وضعفنا!! وقال آخرون : نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج وجبنا عن لقائهم فيكون هذا جرأة منهم علينا ، وقد كنت في يوم بدر في ثلاثمائة رجل ، فظفرك الله عليهم ونحن اليوم بشر كثير قد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به ، فقد ساقه الله إلينا في ساحتنا . وقال مالك بن سنان : يا رسول الله نحن والله بين إحدى الحسنيين إما أن يظفرنا الله بهم أو يرزقنا الشهادة . وسمعت حمزة بن عبد المطلب يقول : والذي أنزل عليك كتاب الله لا أطعم اليوم طعاما حتى أجالدهم بسيفي هذا خارجا من المدينة ، وتساءل النعمان بن مالك : يا رسول الله لم تحرمنا الجنة ؟ فوالذي لا إله إلا هو لأدخلنها !! فسأله الرسول عليه السلام: بم ؟ قال : إني أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف .. أجاب الرسول عليه السلام وهو يبتسم : صدقت!!

وسمعت صديقي أياس بن أوس يقول : يا رسول الله نحن بنو عبد الأشهل نرجو أن نذبح ويذبح فينا فنصير إلى الجنة ويصيرون إلى النار ، مع أني يا رسول الله لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون: حصرنا محمد في صياصي يثرب وآطامها فيكون هذا جرأة لقريش..

ولم استطع أن أمسك دمعتين سالتا على خدي وأنا استمع لعبد الله بن جحش يدعو الله بحرارة تهز الوجدان : اللهم إني اسألك أن ألقى العدو غدا فيقتلوني ثم يبقروا بطني ويجدعوا أنفي وأذني وتسألني : فيم ذلك ؟ فأقول فيك!!

والحق أن الإلحاح على الخروج للقتال بعيدا عن المدينة لم يجئ من الشباب ومن أولئك الذين لم يشهدوا بدرا فحسب ، بل أسهم معهم في ذلك عدد من كبار المسلمين، الأمر الذي فسر لنا ، نحن الذين أدركنا مخاطر الخروج ، استجابة الرسول عليه السلام لوجهة النظر هذه ، وعدم تردده في قبولها اعتمادا على ثقته الكبيرة بهذا العدد الكبير من أتباعه الراغبين في الخروج .

وخوفا من أن يطول النقاش ، وتتعرض وحدة الصف المسلم للخطر ، وتلبية لنداء الشباب المتحمسين للقتال والشهادة ، أسوة بإخوانهم في بدر ، أسرع الرسول (صلى الله عليه وسلم) فدخل بيته ولبس درعه وحمل سلاحه . وما أن رآه إخواننا الذين ألحوا بالخروج حتى ندموا وقالوا : استكرهنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولم يكن لنا ذلك . وعرضوا عليه أن يعودوا إلى رأيه الأول . إلا أنه أجابهم (ما كان لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل ، فانظروا ما أمرتكم به فافعلوه فلكم النصر إن صبرتم)..!!

غادرنا المدينة بعد أن تم وضع النساء والصبيان في الحصون والآطام، كان عددنا حوالي الألف مقاتل، لكننا ما إن قطعنا شوطا من الطريق إلى أحد حتى انسحب عبد الله بن أبيّ زعيم المنافقين بثلث الجيش، وقال مبررا ذلك: ما ندري علام نقتل أنفسنا هاهنا يا أيها الناس؟

ورأيت ، عن بعد ، عبد الله بن عمرو بن حرام يهرع إليهم حاثا إياهم على الرجوع مع إخوانهم ، لكنهم لم يستجيبوا لنداءاته .. وإنها لحكمة الله سبحانه أن يفرز هذا الحشد من المتخاذلين وضعاف الإيمان قبل بدء المعركة واحتدام الصراع.

عسكر الرسول عليه السلام بنا قريبا من أحد جاعلا ظهورنا إليه ، وسوّى صفوفنا ، وطلب منا ألا نقاتل حتى يأمرنا بذلك واختار خمسين رجلا وضعهم على الجبل وأمّر عليهم عبد الله بن جبير وقال له : (انضح الخيل عنا بالنبال لا يأتون من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا ، فاثبت لا تؤتين من خلفك) .. ولبس (صلى الله عليه وسلم) درعين زيادة في الحيطة ودفع اللواء إلى داعيتنا المجاهد الشاب مصعب بن عمير .

أما قريش فقامت بتعبئة رجالها بمواجهتنا وقسمت فرسانها الذين بلغوا مائتي رجل إلى قسمين ، أحدهما في الميمنة بقيادة خالد بن الوليد والآخر في الميسرة بقيادة عكرمة بن أبي جهل.. وسلم اللواء إلى بني عبد الدار . وطرقت أسماعنا نداءات أبي سفيان وهو يحرضهم على القتال فيردون عليه مطمئنين : ستعلم غدا ، إذا التقينا ،

كيف نصنع!! وراحت هند بنت عتبة ، والنسوة اللواتي قدمن معها ، يحرضن الرجال ويضربن الدفوف وينشدن الأراجيز الحماسية لدفعهم على القتال .. لقد استعد القوم إذن .. وإن أمامنا ليوم ثقيل ..

(٦)

بدأ القتال يوم السبت منتصف شوال ، ورفعنا شعار (أمت.. أمت) ورحنا نتنادى به ليعرف بعضنا بعضا.. وجرد رسول الله عليه السلام سيفه ونادى : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ وسمعت أبا دجانة يسأله : وما حقه يا رسول الله؟ أجابه : أن تضرب به العدو حتى ينحني . فرد أبو دجانة : أنا آخذه بحقه يا رسول الله . واستلم السيف ، وعصب رأسه . كعادته . بعصابة حمراء واندفع إلى قلب المعركة لا يعترضه أحد من المشركين إلا قتله .. وشهدت حمزة بن عبد المطلب يقطف رؤوس الكفر واحدا واحدا فيحدث في صفوف القرشيين خللا واضطرابا وهو ينهد عليهم يمينا وشمالا..

ألهبت هذه البدايات المؤثرة حرارة الإيمان وروح الاستشهاد في نفوسنا فاندفعنا نقاتل المشركين بضراوة بالغة ، واستمرت المعركة بين المعسكرين غير المتكافئين ، إلا أن حرارة الإيمان والرغبة العميقة في الشهادة مكنت القلة أن تواصل القتال ساعات طوالا وأن تقتل من المشركين أضعاف قتلاها وتحرز انتصارا تدريجيا ..

شد الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود على المشركين فهزماهم . وحمل النبي (صلى الله عليه وسلم) وعدد من أصحابه فهزموا أبا سفيان ، فلما رأى ذلك خالد بن الوليد حمل على جناحنا في محاولة للالتفاف ولكن الرماة تصدت له فتراجع واختفى وأعاد المحاولة مرة أخرى ونبال الرماة تنهال على أصحابه فتقتل منهم من تقتل وتضطرهم إلى الانسحاب .

وقاتل مصعب بن عمير دون الرسول (صلى الله عليه وسلم) حتى قتل رحمه الله على يد ابن قميئة الليثي، فأحدث مقتله شرخا عميقا في نفوسنا نحن الأنصار الذين هدانا الله على يديه..

وكان مقتل حمزة بن عبد المطلب جرحا أعمق غورا .. لقد كمن له وحشي، غلام جبير بن مطعم الذي يجيد الإصابة بحربته الحبشية ، والذي كان قد وعد من قبل سيده أن ينال حريته إذا ما تمكن من قتل العملاق المسلم.. انتهز غرة من المقاتل

العظيم وهو يصطرع كالسيل مع رؤوس الكفر وهز حربته ، حتى إذا رضي عنها ، دفعها إليه ، فوقعت في ثنته وخرجت من بين رجليه ، إلا أن حمزة قاوم الموت وأخذ يزحف صوب وحشي ولكنه سقط قبل أن يتمكن منه .. فما كان من وحشي إلا أن استل الحربة من جسده لكي يعرضها على سيده!!

ورغم ذلك كله ، رغم خسارة هذين المجاهدين الكبيرين في صفوفنا ، فإن معنوياتنا كانت على أعلى ما تكون قوة ومضاءً ، ورحنا نجالد أعداءنا بعنف حتى أنزل الله نصره علينا وصدقنا وعده ، فرحنا نستأصلهم بالسيوف حتى كشفناهم عن مواقعهم ، وكان النصر لاشك فيه..

لكن لحظة من لحظات الضعف البشري ساقت عددا من الرماة الذين كانوا يدافعون عن ظهورنا فوق جبل أحد إلى نسيان أوامر النبي (صلى الله عليه وسلم) ومغادرة مواقعهم لمشاركتنا في مطاردة المشركين وجمع الغنائم .. فنادى قائدهم عبد الله بن جبير : أما علمتم ما عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) إليكم؟ فلم يلتفتوا إليه . وقالت طائفة أخرى من الرماة : بل نطيع الرسول (صلى الله عليه وسلم) فنثبت في مكاننا.

وبقي ابن جبير في عشرة من أصحابه أمرهم بالانتشار في الجبل لئلا يتيحوا ثغرة للعدو ، واستقبلوا الشمس ، فانقض خالد بن الوليد عليهم يتبعه عكرمة وقام بحركة التفاف من وراء الجبل فجرح وقتل الرماة الذين ثبتوا في أماكنهم ، وراح عبد الله بن جبير يقاتلهم بما تبقى معه من نبال حتى فنيت ، ثم طاعن بالرمح حتى انكسر، فكسر جفن سيفه وراح يقاتلهم حتى قتل وخرجت أمعاؤه من ضربات الرماح . ثم انقضّ خالد بخيالته على ظهورنا فما شعرنا إلا وأصحابه يعملون فينا قتلا وجرحا.

وصرخ صارخ : أن محمداً قد قتل .. فكاد وقع النبأ ينتزع منا آخر قدراتنا على المقاومة.. وما أن رأى المشركون المنهزمون ما فعل خالد حتى عادوا ثانية إلى ساحة

القتال وأوقعونا في شقي الرحى وراحوا يحصدوننا حصدا .. وكاد سيف أحدهم أن يقطف رأسي لولا أن مرقت في اللحظة المناسبة فأصابني في كتفي واستنزف مني دما غزيرا قبل أن يتمكن أحد رفاقي من ربطه بإحكام بقطعة من عمامتي!!

لم يفقد الرسول (صلى الله عليه وسلم) رباطة جأشه وقدرته على القيادة والتخطيط للخروج من المحنة القاسية التي كادت تأتي على أصحابه ، ودعوته ، وتعرض مصير ست عشرة سنة من الجهد والعذاب للضياع .. فرأى أن يتخذ من مكان قيادته مركزا نتجمع فيه ثانية كي لا نتبعثر وينفرد المشركون بنا ويحيلوا نصرهم إلى عملية إبادة شاملة ، فاتجه صوب الشعب يصحبه أبو بكر وعمر وعلي وطلحة والزبير وجماعة من المهاجرين والأنصار ، كنت واثنين من أصحابي ، من بينهم ، وبلغنا جميعا حوالي الثلاثين رجلا ، بينما كان معظم إخواننا قد تشتتوا في أطراف الميدان وعاد بعضهم إلى المدينة .

وراح الرسول عليه السلام يقاتل حتى صارت قوسه شظايا ، ونحن نقاتل من حوله قتالا مريرا تساقط من خلاله الكثير وهم ينافحون عن نبيهم ودعوتهم .. وقف ستة من الأنصار، يدافعون عنه (صلى الله عليه وسلم) ويقتلون دونه ، وكان آخرهم ابن خالة لي يدعى زياد بن السكن ، أصابه جرح مميت فنادى الرسول عليه السلام : أدنوه مني فأدنوه منه فوسده قدمه وبه أربعة عشر جرحا ، فمات هناك رحمه الله .. ورمى سعد بن أبي وقاص دون الرسول (صلى الله عليه وسلم) والرسول يناوله النبل ويقول : فداك أبي وأمي.. وترّس أبو دجانة بجسده دون الرسول (صلى الله عليه وسلم)، يقع النبل في ظهره وهو منحن عليه حتى كثر فيه .. وحاولت بصعوبة أن أمنع عنه سيل النبال ولكن جرحي خانني ..

ورأيت ، وأنا أعاني من عذاب يصعب وصفه ، عددا من المشركين يخلصون إلى الرسول عليه السلام يريدون قتله ، والحجارة وهي تنهال عليه .. فأصيبت رباعيته، وجرح وجهه ، وكلمت شفته ، ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ، فجعل الدم

يسيل على وجهه وجعل علي بن أبي طالب يمسح الدم ويقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعو إلى ربه ؟

وما لبث أن تقدم رجل من المشركين ، أغلب الظن أنه أبي بن خلف ، وهو يقول : أي محمد لا نجوت إن نجوت .. فصرخنا جميعا : يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا ؟ قال عليه السلام : دعوه . وتناول حربته واستقبل بها غريمه وقذفه بها فاستقرت في عنقه ، فسقط من فرسه يتلوى ..

وأقبل الحباب بن المنذر يصيح : يا آل سلمى : فأقبلوا كتلة واحدة وهم يهتفون: لبيك داعي الله .. لبيك ، وترتفع حناجرهم بشعار المعركة : أمت أمت .. ورأيت كعبا بن مالك يقاتل قتالا شديدا حتى جرح سبعة عشر جرحا . ونثر أبو طلحة كنانته بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وكان راميا ، وجعل يصيح : يا رسول الله، نفسي دون نفسك ، فلم يزل يرمي بها سهما سهما حتى فنيت نبله وهو يقول للرسول : نحري دون نحرك جعلني الله فداك . وانقضّ سعد. بن أبي وقاص باحثا عن أخيه الذي كسر رباعيّة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليقتله ولكنه أفلت منه . وقاتل طلحة بن عبيد الله عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قتالا شديدا ، وكان يدور حوله ويترس بجسده حتى أصابه سهم شل إصبعه ، وتلقى ضربة قاسية على رأسه جعلت الدم ينزف منه حتى أغمي عليه وما أن أفاق ، بعد أن نضح أبو بكر على وجهه الماء ، حتى كان أول ما سأل : ما فعل الرسول (صلى الله عليه وسلم) ؟ أجابه الصديق : خيرا ، فرد طلحة : الحمد لله ، كل مصيبة بعده جلل .

ولم يفت أخواتنا المؤمنات شرف القتال يوم المحنة ذاك .. قاتلت نسيبة بنت كعب مع زوجها وولديها ، وأبلت بلاء حسنا فجرحت اثني عشر جرحا بين طعنة برمح وضربة بسيف ، ودافعت عن الرسول عليه السلام إزاء محاولة قتله من قبل المشركين دفاعا مستميتا ، ولما جرح أحد ابنيها وراح الدم ينزف من عضده اليسرى بغزارة سعت إليه وربطت جرحه بعصابة كانت قد أعدتها لمداواة الجرحى ثم قالت له : انهض يا بني

فضارب القوم . والرسول عليه السلام يناديها : ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة!!
فتقول : ما أبالي ما أصابني من الدنيا!!

ولن أنسى ما حييت : السميراء بنت خنيس وقد نعينا ابنيها إليها ، فإذا بها تسألنا : وما فعل الرسول (صلى الله عليه وسلم) ؟ قلنا : خيرا ، هو بحمد الله على ما تحبين . قالت : أرونيه أنظر إليه ، فأشرنا إليه قالت : كل مصيبة بعدك يا رسول الله جلل! ولن أنسى كذلك ما حدثني به أحد أخوتي عن أم أيمن عندما لقيت جماعة من المنهزمين ، أتدرون ما فعلت؟ جعلت تنثر التراب بوجوههم وتقول : هاك المغزل فأغزل به؟

(٧)

تمكنا بمعونة الله وقيادة رسوله عليه السلام من الصمود لهجمات المشركين، وعرف رفاقنا الذين تشتتوا في ميدان المعركة ، في أعقاب التفاف خالد ، وانتشار شائعة وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، عرفوا أن رسولهم لم يمت فأخذوا يتجمعون من جديد حوله وطلب (صلى الله عليه وسلم) منا أن نتراجع صوب جبل أحد ، وأن نحصب المشركين بالحجارة ، وألا نسمح لهم بأن يلتفوا علينا من فوق . وسعت فرقة من القريشيين إلى الالتفاف علينا كرة أخرى فتصدى لهم عمر بن الخطاب وجماعة من المهاجرين حتى أجلوهم عن الجبل . ونهض عليه السلام إلى صخرة قريبة منه ليعلوها فلم يستطع لشدة إعيائه ، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فنهض حتى استوى عليها .

أدرك المشركون أن دون إبادتنا وتفتيتنا المستحيل ، وكانوا قد أصابهم التعب والجراح ، فآثروا الانسحاب مكتفين بهذا القدر من النصر الذي ظنوه ليس بالقليل . وأشرف أبو سفيان على مرتفع عال ونادى بأعلى صوته : إن الحرب سجال ، يوم بيوم بدر ، أعل هبل! فقال الرسول عليه السلام لعمر : قم فأجبه وقل: الله أعلى وأجل ، لا سواء ، قتلانا في الجنة ، وقتلاكم في النار . فطلب أبو سفيان من عمر أن يقترب قليلا وقال له : أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمدا ؟ أجاب ابن الخطاب : اللهم لا ، وأنه ليسمع كلامك الآن .

فانصرف أبو سفيان ومن معه وهو ينادي : إن موعدكم بدر العام القابل ، فقال عليه السلام لعمر قل : نعم هو بيننا وبينكم موعد !!

وتوقف القتال وكانت خسائرنا بضعا وسبعين شهيدا ، أما المشركون فلم يزد قتلاهم عن ثلاث وعشرين . ولم يغب عن ذهنه (صلى الله عليه وسلم) وهو يعاني التعب والسهر والجراح ، أن المشركين ربما فكروا بهجوم حاسم على المدينة نفسها فقطعوا الطريق على المسلمين في أحد وعرضوهم لمصير أشد حلكة وخطرا من

المعركة نفسها ، فطلب من علي بن أبي طالب أن يخرج في أعقاب القوم فينظر ماذا يصنعون ، وما يريدون ، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة ، وسمعناه يقسم عليه السلام (والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم ثم لأناجزنهم فيها) . لكن عليّا ما لبث أن عاد ليخبرنا بأن المشركين امتطوا الإبل ويمموا وجوهم شطر مكة. ومن أجل مزيد من ضمان عدم عودة المشركين لمهاجمة المدينة انتدب الرسول (صلى الله عليه وسلم) سبعين رجلا منا لمتابعة المشركين والتأكد من عدم اعتزامهم الرجوع .

فزع الناس لقتلاهم وسأل عليه السلام : من ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع، أفي الأحياء أم في الأموات ؟ فقلت: أنا أنظر لك يا رسول الله .. ورحت أبحث عنه فوجدته جريحا في القتلى وبه رمق.. اقتربت منه وقلت : إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أمرني أن أنظر أفي الأموات أم في الأحياء ؟ أجابني : أنا في الأموات ، فابلغ الرسول (صلى الله عليه وسلم) عني السلام وقل له : إن سعد بن الربيع يقول لك جزاك الله عنا خير ما جزى نبيا عن أمته ، وابلغ قومك عني السلام وقل لهم إن سعد بن الربيع يقول لكم : لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف !! وأنا أحكي له عن مصير المعركة وتوقف القتال وجدته يردد : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.. ثم ما لبث أن توفي رحمه الله ..

عدت لكي أخبر الرسول عليه السلام ، فوجدته قد خرج يبحث عن جسد عمه حمزة ﷺ ، فلحقته وعدد من أصحابي إلى هناك حيث وجدناه ببطن الوادي وقد بقرت بطنه ، وسمعنا الرسول عليه السلام يقول : لولا أن تحزن صفية ، ويكون سنة من بعدي ، لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير. ولئن اظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم !!

فلما رأينا حزنه وغيظه قلنا : والله لئن أظفرنا الله بهم يوما من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب ..

إلا أن الآيات القرآنية سرعان ما تنزلت على رسول الله بالقيم الثابتة التي تتجاوز مواقف الانفعال والآلام ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ ❖ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ فعفا الرسول (صلى الله عليه وسلم) ونهى عن المثلة . ثم أمر بحمزة فسجي ببردة ثم صلي عليه ، ثم أمر بالقتلى يوضعون إلى جانب حمزة واحدا واحدا ، فصلى عليهم وعليه ، حتى أنه صلى اثنين وسبعين صلاة هي عدد القتلى من المسلمين . وآثر (صلى الله عليه وسلم) جسد مصعب بن عمير ﷺ ببردة له وقال : (رحمك الله ، لقد رأيتك بمكة وما بها أرق خلة ولا أحسن منك حلة ، ثم أنت في أشعث بردة)!!

وجاءت صفية بنت عبد المطلب ، وقد سمعت بأن أخاها قد مثل به فقالت : ما أرضانا بما كان من ذلك ، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله !! وحاول عدد من أصحابنا أن يحملوا قتلاهم ليدفنوهم في المدينة ، فنهاهم (صلى الله عليه وسلم) قائلا (ادفنوهم حيث صرعوا)!! ثم وقف عليهم وقال: (أنا شهيد على هؤلاء ، إنه ما من جريح يجرح في الله إلا ويبعثه الله يوم القيامة ، يدمى جرحه ، اللون لون دم ، والريح ريح مسك).. كانت كلمات الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، تنفذ إلى أعماقنا بما تحمله من هدوء حزين ، ولولا أنا رأيناه صابرا كأولي العزم لأطلقنا لدموعنا العنان!!

لم يلبث عليه السلام ، في اليوم التالي للمعركة ، أن قام بمناورة عسكرية استهدفت تحقيق أهداف عدة منها إرهاب العدو ، مشركين وأعرابا ، منافقين ويهودا ، وإشعارهم أن المسلمين لا زالوا على قوتهم ومقدرتهم القتالية ، وأن هزيمة أحد لم توهنهم عن أهدافهم ، ومنها رفع معنوياتنا وإزالة الآثار المؤلمة التي خلفتها معركة أحد والتي كان بإمكانها أن تحفر في نفوسنا خنادق وحفرا لا تمحوها الأيام .

نادى مناديه في السادس عشر من شوال أن نتهيأ لطلب العدو وألا يخرج معنا أحد لم يشترك في معركة أحد ، وانطلق الرسول عليه السلام بنا حتى بلغنا حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة . وكان المشركون قد بلغوا الروحاء ، على بعد ليلتين من المدينة وعسكروا هناك ، وأجمعوا أمرهم على العودة ثانية لقتالنا بعد أن

أدركوا أنهم لم يستأصلوا شأفتنا .. لكن رجلا من خزاعة ، حلفاء الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، مر بهم وأعلمهم أن محمداً عليه السلام يطلبهم على رأس قوة كبيرة من المسلمين تتحرق شوقا لقتالهم ، انضم إليها حتى أولئك الذين لم يشهدوا أحداً . فعدل المشركون عن رأيهم ، واستأنفوا طريق عودتهم إلى مكة . إلا أن أبا سفيان رأى أن يستفزّنا ويرهبنا فدس إلينا من يخبرنا أن قريشا عائدة لاستئصالنا . فما كان من الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلا أن استجاب للتحدي قائلا : حسبنا الله ونعم الوكيل . وأقام بنا هناك ثلاثة أيام قفلنا بعدها عائدين وقد حققنا الأهداف التي توخاها عليه السلام من مناورته تلك .

لقد جاءت هزيمة أحد تعليما قيما لنا عبر دروب صراعنا المرير ضد الأعداء ، وكأن إرادة الله شاءت أن نكبو هذه الكبوة بعد سلسلة الانتصارات التي حققناها قبل بدر وبعدها ، لأن الانتصار الدائم يعرض الجماعة لنوع من اليقين الأعمى والاتكالية ويحشر في صفوفهم الكثير من ضعاف الإيمان وطالبي المغانم ، فلابد من هزة عنيفة تنخل المنتمين إلى الدعوة وتسقط عنهم أولئك الذين لا يقدرون على الصمود ومجابهة الخطر وجها لوجه ، وممارسة الموت بإيمان .

وقد ظل القرآن الكريم ، الذي خصص الكثير من آياته لهذه التجربة المرة ، يعلمنا بالتجارب والأحداث ويبني دعوتنا بالهزائم والانتصارات ، وتتنزل آياته مفرقة وعلى مكث اثر كل حدث نمارسه وعقب كل تجربة نخوضها .. تتنزل لكي تمتزج مع حيوية التجربة التي نعيشها وواقعيتها وثقلها لكي ما تلبث هذه الآيات أن تغدو جزء من كياننا متمثلا في لحمنا وعصبنا ووجداننا .. وتبقى هنالك حتى النهاية تؤتي ثمارها نضجا للتجربة ، وتقويما للحركة ، واستقامة على الطريق..

(٨)

وجدت الوثنية العربية فرصتها للانتقام منا في أعقاب هزيمتنا في أحد ، وراحت توجه إلينا الضربات الغادرة كلما تمكنت منها ، متجاوزة في ذلك أعرافها وقيمها التي درجت عليها مئات السنين.

فبعد وقت قصير من عودتنا إلى المدينة في أعقاب أحد ، قدم على رسولنا عليه السلام وفد من قبيلتي عضل والقارة في صفر وقالوا : يا رسول الله ، إن فينا إسلاما فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقهوننا في الدين ويقرؤوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام ، فبعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) معهم سبعة من أصحابه : مرثد بن أبي مرثد ، خالد بن أبي البكير ، متعب بن عبيد ، عاصم بن ثابت ، خبيب بن عدي، زيد بن الدثنة ، وعبد الله بن طارق ، وأمر عليهم مرثد بن أبي مرثد . فانطلق الدعاة يجتازون الصحراء حتى إذا ما بلغوا ماء الرجيع بين عسفان ومكة ، حيث تقطن بنو هذيل ، غدر بهم أعراب عضل والقارة ، فاستصرخوا عليهم هذيلا التي كان زعيمها سفيان بن خالد قد قتل على أيدي المسلمين في أعقاب أحد ، حيث كان قد حشد أتباعه للهجوم على المدينة ، فلم يرع الدعاة إلا والرجال بأيديهم السيوف يحيطون بهم ، فشهروا أسيافهم ليقاتلوهم ، فقال لهم رجال بني هذيل : إنا والله ما نريد قتلكم ولكن نريد أن نصيب بكم مالا من أهل مكة ، ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم . فأما خالد ومرثد وعاصم ومتعب فقالوا : والله لا نقبل من مشرك عهدا ولا عقدا أبدا ، وانطلقوا يقاتلون وعاصم ينشد :

الموت حق والحياة باطل

وكل ماحم الإله نازل

بالمرء والمرء إليه آيل

حتى قتلوا جميعا . وأما إخوانهم الثلاثة فقد أسرتهم هذيل وحملتهم إلى مكة لتبيعهم بها ، ومعنى هذا أنها تسلمهم لمصارعهم ، حتى إذا بلغوا الظهران تمكن عبد الله بن طارق من انتزاع يده من الحبل الذي شدت به ، وإشهار سيفه ، فأنهال عليه آسروه ضربا بالحجارة حتى قتل .

واقتيد خبيب وزيد إلى مكة حيث استبدلا هناك بأسيرين كانا في مكة . فأما زيد فقد ابتاعه صفوان بن أمية ليقتله ثأرا لأبيه : أمية بن خلف ، وبعث به إلى مكان خارج مكة ليلاقي مصيره ، واجتمع حوله رهط من قريش ، وسأله أبو سفيان حين قدم ليقتل : أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه ، وأنك في أهلك ؟ قال : والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وإني جالس في أهلي . فقال أبو سفيان للملأ من حوله : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا .. ثم قتل زيد رحمه الله ..

وخرجوا بخبيب إلى نفس المكان ليصلبوه ، فسألهم أن يمنحوه فرصة يركع فيها ركعتين فركعهما وأحسنهما ثم أقبل على القوم فقال : أما والله لولا أن تظنوا أني طولت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة . فكان خبيب أول من سن ركعتي القتل عند المسلمين . وعندما رفعوه إلى الخشبة وأوثقوه ، رفع وجهه إلى السماء فقال : اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك فبلغه الغداة ما يصنع بنا.. اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تغادر منهم أحدا.. وصلبوه وهو ينشد :

إلى الله أشكو غربتي ثم كربتي ... وما أرصد الأحزاب لي عند مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

فوالله ما أرجو إذا مت مسلما ... على أي جنب كان في الله مصرعي

وفي صفر من العام نفسه قدم علينا أبو براء ، عامر بن مالك ، الملقب بملاعب الأسنة ، التقى برسول الله (صلى الله عليه وسلم) فعرض عليه الإسلام ودعاه إليه ، فلم يسلم ولم يبعد عن الإسلام وقال : يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك ، رجوت أن يستجيبوا لك . وعندما أعلمه الرسول عليه السلام أنه يخشى عليهم أهل نجد ، بعد أن أصيب أصحابه في ماء الرجيع ، قال أبو براء : أنا جار لهم فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك .

كان عليه السلام يعرف يقينا أن انتصار دعوته وانتشارها لا يتحقق بغير تضحيات ، وأن الانسياق وراء الحيطة والحذر في ميدان التضحية والفداء لا يقود إلى النصر ، وأن عليه أن يختار في هذه اللحظات القلقة الطريق الصعب كي لا تقول العرب أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد عجز عن الاستمرار في الطريق حتى النهاية .. أخافته مقاتل أصحابه . هذا إلى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يبعث أصحابه هذه المرة لكي ينتحروا ، فهم الآن أكثر عددا ، وفي جوار رجل وضعهم في حمايته ، ولم يعرف عن العرب حتى تلك اللحظة أنهم خرقوا قدسية الجوار ، ولا علم للرسول (صلى الله عليه وسلم) بالغيب ، فلينطلق أصحابه على بركة الله .

سار الدعاة الأربعون الذين اختارهم الرسول عليه السلام بقيادة المنذر بن عمرو حتى نزلوا بئر معونة قريبا من ديار بني عامر ، وتقدم حرام بن ملحان بكتاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى زعيم القوم عامر بن الطفيل ، لكن عامر ما أن نظر في الكتاب حتى عدا على ابن ملحان فضربه برمح في جنبه خرج من الشق الآخر وابن ملحان ينادي : فزت ورب الكعبة!! ثم استصرخ عامر على الدعاة بني قومه فلم يجيبوه التزاما بجوار أبي البراء ، فاستصرخ بقبائل سليم المجاورة فأجابوه وأحاطوا بالدعاة وهم في ركابهم فهرعوا إلى سيوفهم وقاتلوا القوم قتالا مريرا ، حتى حصدوا عن آخرهم . إلا كعب بن زيد فقد انسحب جريحا من المجزرة وتمكن من الوصول إلى المدينة ليحكي لنا بعض تفاصيل الغدر ..

وكان الدعاة قد تركوا في سرحهم اثنين من رفاقهم هما عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن محمد الأنصاري ، فلم ينبههما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم حول المعسكر ، فأقبلا لينظرا فإذا إخوانهما يتضرجون بدمائهم ، ومن حولهم المغيرون على خيولهم . فرأى عمرو أن يعود إلى المدينة ليخبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بما حدث ، وأما رفيقه فقد قال : ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو ، أحد أصدقائه ، وما كنت لأبقى حتى تخبرني عنه الرجال ، ثم انقض على القوم حتى سقط مضرجا بدمائه..

في ذي القعدة حل الموعد الذي ضربناه لأبي سفيان في أحد ، للقاء جديد في بدر ، فخرج الرسول عليه السلام على رأس ألف وخمسمائة من أصحابه ، وأقام بنا في بدر ثمانية أيام بانتظار أبي سفيان ، الذي كان قد غادر مكة على رأس مقاتليها . وعندما بلغ الظهران بدأت تتناوشه المخاوف من لقائنا وأخذ يفكر في الرجوع قائلا : يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر وتشربون اللبن ، وإن عامكم هذا عام جدب ، وإني راجع فارجعوا ، فقفلوا عائدين إلى مكة . وعندما أيقن الرسول عليه السلام أن أبا سفيان قد نكل عن الموعد ، قفل عائدا بنا إلى المدينة وقد حقق نصرا معنويا ضد قريش ، كما عزز مكانة المسلمين في الصحراء بعدما تعرضت له من تأرجح في أعقاب أحد .

وانطلق عليه السلام في أعقاب ذلك صوب قبائل نجد ردا على ما لحق بدعاته في مأساتي الرجيع وبئر معونة ، ولقد قطعنا وراء قائدنا ونبينا طريقا طويلا كثير الحجارة حتى وهنت أقدامنا ، فشددنا عليها رقاعا .. لكن غطفان كبرى قبائل نجد جمعت لنا جمعا عظيما ، وعندما اقتربنا منهم ، تخوف أحدنا الآخر ، ورأى الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن من المجازفة الاشتباك مع قوات تفوق المسلمين أضعافا مضاعفة .. فطلب منا أن نقفل عائدين إلى المدينة..

(٩)

يبدو أن الهزائم التي أخذت تحدق بيهود المدينة ، سيما بعد إجلاء بني النضير ، دفعتهم إلى أن يتحركوا بوجه السرعة لتوجيه ضربة قاصمة للدولة الإسلامية قبل أن يشتد ساعدها ويحدق خطرها بالوجود اليهودي في جزيرة العرب . وأدركوا أن استثارة قريش وحدها ضدنا أمر غير مضمون العواقب ، وأن انفراد كل قوة وثنية في مهاجمة مواقع الدين الجديد سوف يمكننا من تصفيتها واحدة بعد الأخرى ، فلابد إذن من أن تتجمع القوى الوثنية كلها بزعامة قريش وتتحرك لاستئصال شأفتنا ، ومن ورائها مكر اليهود وأموالهم .

خرج خمسة من زعماء اليهود بقيادة سلام بن أبي الحقيق وقدموا إلى مكة واتصلوا بقادة قريش ودعوهم إلى حرب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقالوا : انا سنكون معكم حتى نستأصله . وقد جاءت هذه الدعوة الماكرة في فترة كانت قريش تعاني خلالها من حصارنا الاقتصادي وتزداد يقينا بأن معركة أحد لم تفعل شيئا ، فاستجابت للعرض اليهودي ، بينما انطلق النفر الخمسة إلى غطفان ودعوهم إلى حربنا لقاء إعطائهم تمر خيبر لمدة سنة ، وأخبروهم بأنهم سيكونون معهم وأن قريشا قد أعدت العدة لهذا الأمر ، وكذلك فعل اليهود مع عدد من القبائل الأخرى .

انطلقت الأحزاب الوثنية البالغ عددها عشرة آلاف مقاتل صوب المدينة : قريش وأحلافها من بني كنانة وأهل تهامة والأحابيش يقودها أبو سفيان بن حرب ، وغطفان يقودها عيينه بن حصن الفزاري ، وبنو مرة يقودها الحارث بن عوف ، وأشجع يقودها مسعود بن رخيلة.

وما أن سمع رسولنا عليه الصلاة والسلام أنباء التحرك الخطير حتى بدأ يخطط لصد أكبر هجوم على الإسلام منذ مولد الدعوة الإسلامية . وكان الأمر يحتم اتخاذ خطة دفاعية ، فاستشارنا ورسم معنا ما يتوجب عمله وهو يقضي ، فيما أشار به سلمان الفارسي رضي الله عنه ، بحفر خندق طويل لحماية الأجزاء الشمالية المكشوفة من المدينة

. أما الأجزاء الأخرى فكانت تتمتع بحصانة طبيعية حيث تمتد حرة واقم إلى الشرق وحرة الوبرة إلى الغرب وتتكاثف أشجار النخيل في الجنوب ، فضلا عن تشابك البنيان في هذه الجهات .. الأمر الذي جعل فكرة حفر الخندق أمرا يمكن تنفيذه قبل انقضاض الأحزاب .

أصدر الرسول عليه السلام أوامره بتقسيمنا إلى مجموعات كل واحدة منها تتكون من عشرة أشخاص كلفوا بحفر أربعين ذراعا .. وأسهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) معنا في أعمال الحفر بهمة ودأب وراح ينقل التراب معنا وينشد وإيانا ، وقد غطى التراب على بطنه وصدره :

لا همّ لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الألى لقد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا

وكلما بلغنا المقاطع الأخيرة مدها الرسول عليه السلام رافعا بها صوته .. ولقد رأيته عليه السلام وانه ليضرب مرة بالمعول ومرة يغرف بالمسحاة التراب ومرة يحمل التراب في المكتل ، كما رأيته وقد بلغ منه الجهد فجلس ثم اتكأ على حجر على شقه الأيسر فذهب به النوم ، فرأيت أبا بكر وعمر واقفين على رأسه .. وقد دفعنا هذا كله إلى أن نتفانى في العمل ولا يغادر أحدنا موضعه إلا بعد استئذان الرسول عليه السلام ، وما أن ينتهي من قضاء مهامه حتى يعود على جناح السرعة لإتمام ما كلف به إيمانا واحتسابا..

كان لتقسيم العمل ، وإسهام الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيه إلى جانب أصحابه ، والإيمان العميق الذي كان يدفعنا إلى بذل كل طاقتنا لإنجاز الخطة الدفاعية ، وشعورنا بعظم الخطر المحدق بنا إن هوجمت المدينة قبل أن ينجز حفر الخندق ، فضلا عن تأملينا من قبل الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالنصر القريب

في الأرض وبالأجر العريض في السماء .. كان لهذه الأمور جميعا الأثر الحاسم في تمكيننا من حفر الخندق الذي يمتد عدّة آلاف من الأذرع في ستة أيام قبل أن يداهمنا الأعداء . ومن أجل استكمال الخطة الدفاعية عسكر الرسول بالمقاتلين الذين بلغ عددهم ثلاثة آلاف ، وراء الخندق جاعلا ظهورنا إلى جبل سلع، موزعا النساء والأطفال في القلاع الحصينة كي نتمكن من التحرك بسهولة ويسر إذا حدث وتسرب المشركون إلى الداخل ، كما شكل كتائب خاصة أمرها أن تعسكر في جبهات المدينة الأخرى ، سيما وأن هناك بعض الثغرات التي يمكن اجتيازها دون عناء كبير ، كما شكل مجموعات أخرى تتجول في المدينة لحراستها من غدر اليهود ، وتظهر التكبير من أجل رفع معنويات أهليها ، وقد أسهم بنفسه في حراسة الخندق أسوة بنا ، فكان يبيت منفردا هنالك في ثلمة كان يخشى أن يتسلل منها المشركون حتى يلفحه البرد .

أقبلت قوات الأحزاب البالغة حوالي عشرة آلاف مقاتل وعسكرت قريبا من المدينة في الجهات الممتدة شمالا ، وسرعان ما فوجئت بالخندق وقد سد عليها الطريق إلى المدينة ، فقرر زعماؤها أن يضربوا الحصار علينا ويسعوا بين الحين والحين إلى أن يجدوا ثغرة في دفاعنا يتسربون منها للداخل .. وظللنا مفتحي الأعين حذرين إزاء أية محاولة يمكن أن تمنح المشركين جسرا يعبرون عليه إلينا فتكون الطامة الكبرى .

وطالت أيام الحصار ، تخللها رمي بالنبال دون أن يحدث اشتباك حاسم بين المعسكرين ، ورأت مجموعة من فرسان قريش أن تقوم بهجوم سريع علها تنفذ الى الداخل ، فتقدم عمرو بن عبد ودّ العامري وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب وهبيرة بن أبي وهب ، بعد أن أوعزوا إلى أصحابهم بالتهيؤ للقتال واختاروا مكانا ضيقا من الخندق ، فضربوا خيلهم ، فاقتحمته ، وسرعان ما تصدى لهم الزبير وعلي وعمر في نفر منا حيث تمكنا من إجلاء الخيول المغيرة بعد أن قتل علي قائدها عمرو بن عبد ودّ . كما جرت محاولات عديدة للتسلل إلى داخل المدينة من أماكن أخرى . ولقد تمكنت كتيبة قريشية شديدة المراس من التوغل في معسكراتنا إلا أننا تمكنا

من صدها واشتبكنا معها في قتال استغرق معظم النهار وجزء من الليل ، واضطررناها أخيرا إلى الانسحاب . وحاولت قوة من الفرسان بقيادة خالد بن الوليد أكثر من مرة أن تنتهز غرة منا لإيجاد موضع قدم في الداخل ، إلا أننا كنا نردها بالحجارة والنبال على أعقابها . هذا بينما ظلت طلائع العدو تتجول ليلا باحثة عن منفذ تنساب منه إلى قلب المدينة لتطوقنا من الخلف ولكن دون جدوى .

ولم يكن حصار المشركين وحده هو الذي يضيق الخناق علينا ، بل كان هنالك من الداخل ما يزيدنا إرهاقا وخوفا وعناء : الأقوات القليلة المتناقصة يوما بعد يوم، وشبح الجوع الذي لا يرحم ، والبرد القارص في ليالي الشتاء الطويلة، والحرب المعنوية العاتية التي شنتها جيوب المنافقين في صفوفنا مخذلة معوقة مخوفة .. والسهر القاسي في الليالي الطويلة حتى كاد ليلنا بالخندق أن يكون نهارا !! . ثم جاءت أنباء انتقاض يهود بني قريظة علامة خطر أكيدة لمعسكرنا المرهق فعظم البلاء واشتد الخوف .

ولم يشأ الرسول عليه السلام أن يسلم في البداية بانتقاض بني قريظة ، فبعث سعدا بن معاذ وسعدا بن عبادة سيدي الأوس والخزرج ، ونفرا آخرين وقال لهم :

انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فتوجه هؤلاء إلى حصون قريظة وسألوهم عما قيل عنهم ، فما كان جوابهم إلا أن قالوا : من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد ، وعندما عنفهم سعد بن معاذ شتموه، وعاد الرجال لكي يخبرونا عن صحة ما ورد من أنباء زادتنا بلاء على بلاء . حتى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يعد يسمح لأحد منا بالتوجه إلى داخل المدينة إلا وهو يحمل سلاحه حذرا من غدر بني قريظة ، كما أنه جرد كتيبتين من خمسمائة فارس لحراسة المدينة والطواف في أحيائها للتصدي لمؤامرات اليهود التي بدأت تحاك في الخفاء ..

لقد كانت محنة حقا .. وليس ثمة أروع من آيات الله البينات في تصوير الموقف ﴿..إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ ۞ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ .

(١٠)

نشط الرسول عليه الصلاة والسلام في العمل على كافة الجبهات العسكرية والمعنوية لبعث روح المقاومة والصمود في صفوفنا ، حيث بلغ بنا التعب والقلق مداهما .. فراح يرفع معنوياتنا وينفخ الأمل بالنصر في اللحظات التي كنا نتعرض فيها لليأس المرير . اننا ، ونحن نحفر الخندق ، يؤملنا بأن خيولنا ستطأ في يوم قريب عواصم العالم القديم ، وستتهاوى تحت وقع سنابكها عروش كسرى وقيصر ، وستمرغ بأسيافنا أنوف كانت تستعلي على الناس خديعة وكذبا .. وعندما تجيئنا الأخبار مؤكدة نبأ انتقاض بني قريظة ، ينادي : الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين ، ويعدنا بأن مفاتيح الكعبة ستسلم اليه في يوم من الأيام . وزادنا معنوية وصمودا تلك الأمثلة العالية من التضحية والصبر والبطولة التي ضربها بعض إخواننا فالتمعت في قلب المحنة شررا تحركنا على ضوئه إلى أهدافنا ، دفاعا عن المصير الذي صغنا بدمائنا وكدحنا جوانب منه ..

وعلى الجبهة العسكرية لم يدع الرسول (صلى الله عليه وسلم) ثغرة ينفذ منها العدو ولا ترك جانبا يمكن أن يعزز خطة الدفاع والمقاومة إلا اعتمده ونفذه بسرعة . وهاهو الآن يسعى إلى تفتيت جبهة الأحزاب ، فبدون ذلك لا يتحقق النصر ولا يزول الخطر ، فبعثني وعددا من الأنصار إلى قائدي غطفان وبني المرة لكي نغريهما بثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما ويتخليا عن الحصار ، وانتهت المحاولة بكتابة وثيقة صلح بيننا وبينهم تعمد الرسول عليه السلام إرجاء توقيعها ريثما يستشير زعيمينا سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، فبعث إليهما وعرض الأمر عليهما ، فقالا له : يا رسول الله ، أأمر تحبه فنصنعه أم شيئا أمرك الله به لابد من العمل به ، أم شيئا تصنعه لنا ؟ قال : بل شيء أصنعه لكم .. والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من

شوكتهم إلى أمر. فأجاب سعد بن معاذ : يا رسول الله قد كنا وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا . قال الرسول (صلى الله عليه وسلم): فأنت وذاك ، فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها وقال : ليجهدوا علينا .. ولمحت آثار الرضا بادية على وجه الرسول عليه السلام ، لقد اطمأن إلى رغبة أصحابه عامة ، والأنصار خاصة ، في الصمود حتى النهاية بوجه الأحزاب .

لم يأل الرسول (صلى الله عليه وسلم) جهدا من أجل تحقيق هدفه في تفتيت جبهة الأحزاب وتقطيع الرباط الذي يشد بعضها إلى بعض ، لاسيما ذلك الذي يوحد بين الوثنية في الخارج ويهود بني قريظة في الداخل ، إذ أن أي تنسيق يحدث بين الطرفين سيمنح المشركين طريقا أمينا يجتازونه عبر أحياء بني قريظة إلى قلب المدينة، وهنالك تقع الكارثة ونجد أنفسنا ونحن محاطين بآلاف المشركين يجوبون ديارنا ويعملون فينا وفي نسائنا وذرارينا قتلا وأسرا وتشريدا .. وما لبثت العناية الإلهية أن ساقت إليه عليه الصلاة والسلام رجلا أسلم حديثا يدعى نعيم بن مسعود ، عرض على الرسول عليه السلام خدماته قائلا : إن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت. فقال الرسول عليه السلام . إنما أنت فينا رجل واحد فخذّل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة .

غادر نعيم بن مسعود معسكرنا صوب بني قريظة ، وكان نديما لهم في الجاهلية ، فقال: يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم ، قالوا صدقت لست عندنا بمتهم ، قال لهم : إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره، وأن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليهم ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فليسوا كأنتم ، فإن رأوا نهزة أصابوها وإن كان غير ذلك

لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهائن من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تناجزوه!! فقالوا له أشرت بالرأي . ثم خرج نعيم حتى أتى قريشا فقال لأبي سفيان ومن معه من زعماء مكة : قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمدا ، وأنه قد بلغني أمر قد رأيت علي حقا أن أبلغه لكم ، نصحاً لكم ، فاكتموا عني ، فقالوا: نفعل . قال : تعلمون إن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه انا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ إليك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى تستأصلهم؟ فأرسل إليهم أن نعم . فإن بعث إليكم يهود يلتمسون منكم رهائن من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا .. واتجه نعيم بعد ذلك إلى غطفان وأقنعهم بما أقنع به قريشا..

وفي ليلة سبت من شوال ، السنة الخامسة للهجرة ، أرسلت قريش وغطفان عكرمة بن أبي جهل في نفر من القبيلتين إلى بني قريظة لكي يقولوا لهم انا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه، فأرسل لهم اليهود أن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نفعل فيه شيئا ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهائن من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا ، فإننا نخشى إذا ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تذهبوا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلادنا ولا طاقة لنا بذلك منه!! فلما عاد الوفد الوثني وأخبر قريشا وغطفان بما دار من حديث مع بني قريظة ازداد يقين القبيلتين بما قاله نعيم بن مسعود وأرسلوا إلى بني قريظة : انا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فأخرجوا وقاتلوا . وعندما بلغ بني قريظة ذلك قال زعماؤها: إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق ، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا فإن سنحت لهم الفرصة انتهزوها وإن كان غير ذلك رجعوا إلى بلادهم وخلوا بينهم وبين الرجل في بلدكم. فكان جوابهم لقريش وغطفان : إنا والله لا نقاتل معكم محمدا

حتى تعطونا رهائن ، فأبى المشركون الاستجابة لطلبهم ، وتحقق بذلك هدف الرسول (صلى الله عليه وسلم) من تفتيت الجبهة الوثنية - اليهودية ، وكان ذلك بداية النصر الذي بدأ يلوح في الأفق في أعقاب حصار جاوز العشرين يوما .

وسرعان ما فوجئنا بريح عاتية تكتسح معسكرات المشركين فتكفأ قدورهم ، وتطرح آنيتهم ، وتنزع خيامهم فلم يعد يقر لهم قرار.. تلك هي ضربة من ضربات الإرادة الإلهية لتعين على نصر قوم لم يدخروا جهدا في مقاومة العدوان .. وقرر الرسول عليه السلام أن يبعث صحابيا موثوقا من كبار أصحابه هو حذيفة بن اليمان لكي يتسلل إلى معسكرات المشركين ويطلع على جلية الأخبار ، وسمعناه عليه السلام يقول له : (يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فأنظر ماذا يصنعون ، ولا تحدث فيهم شيئا حتى تأتيني) .

تسلل حذيفة إلى معسكرات الأعداء ، والريح وجند الله تفعل بهم ما تفعل ، لا تقر لهم قدرا ولا ناراً ولا بناء ، وأنصت إلى أبي سفيان وهو ينادي قومه : يا معشر قريش والله إنكم ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ، فارتحلوا فإني مرتحل ، ثم قام وأطلق عقال جمله .. كان بمقدور حذيفة أن يضربه بسهم فيقضي عليه ، لكنه تذكر وصية رسول الله عليه السلام فتمالك نفسه وعاد لكي يخبرنا الخبر ..

عندما سمعت غطفان بما فعلت قريش قفلت هي الأخرى عائدة إلى ديارها .. ومددنا أبصارنا فجر اليوم التالي إلى ما وراء الخندق فلم نر أحدا!! فعرفنا آنذاك أن مقاومتنا التي جاوزت العشرين يوما قد آتت ثمارها ، وإن إيماننا قد صمد لأخطر محنة جابهناها طيلة سني الحرب والكفاح ..

ليس هذا فحسب ، بل ان رسولنا (صلى الله عليه وسلم) أعلمنا أن الموقف العسكري إزاء الوثنية قد تحول أساسا وانقلب من الدفاع إلى الهجوم فقال مخاطبا إيانا عند مشارف الخندق (لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم)!! فداك أبي وأمي يا رسول الله .. هكذا وجدتني أصرخ.. لقد اجتزت بنا المحنة فلننطلق على بركة الله ..

(١١)

كانت تجربتنا مع يهود بني قريظة في محنة الخندق قاسية حقا ... لقد طعنونا من الخلف ، ونقضوا عهدهم معنا في اشد الساعات حلكة واظلاما ، فلما تمكنّا - بمعونة الله وقيادة رسوله عليه السلام - من تجاوز المحنة ، ودحرنا أخطر هجوم في تاريخ الدعوة ، وتفككت عرى الاحزاب وقفلت عائدة الى ديارها ... حان الوقت لانزال العقاب العادل بناكثي العهود .. وحدثنا رسولنا (صلى الله عليه وسلم) كيف ان جبريل عليه السلام جاءه وساله بعيد انسحاب الاحزاب : او قد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ فاجابه الرسول : نعم ، فقال جبريل : فما وضعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت الان الا من طلب القوم . ان الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير الى بني قريظة ، فاني عامد اليهم فمزلزل بهم .

وما لبث الرسول (عليه السلام) ان امر مؤذنا في الناس (من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر الا ببني قريظة) ... وذلك اسراعا بنا الى هدفنا واستنهاضا لهمتنا بعد الجهد والعناء الذي اصابنا خلال ايام الحصار الشاقة .. وكي لا يمنح - في الوقت نفسه - فرصة لليهود يجمّعون فيها قواهم ويزيدون تحصيناتهم..

انطلقنا كالاعصار الى حصون بني قريظة وفرضنا عليها الحصار .. وفوجيء اليهود بالهجوم المباغت فغلبهم الرعب وادركوا الا قدرة لهم على الصمود حتى النهاية ... ولما مضت الايام ونحن نزيد احكام قبضتنا على الخصم ، وايقن زعيمهم كعب بن اسد ان الرسول(صلى الله عليه وسلم) غير منصرف عنهم حتى ينزل بهم عقابه ، راح يعرض على قومه حلولا عدة لعلها تخلصهم من المأزق الذي اوقعوا انفسهم فيه ، قال لهم: يا معشر يهود ، قد نزل بكم من الامر ما ترون، واني عارض عليكم خلالا ثلاثة فخذوا ايها شئتم . قالوا : وما هي ، قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه فو الله لقد تبين لكم انه نبي مرسل ، وانه للذي تجدونه في كتابكم فتأمنون على دمائكم واموالكم وابنائكم ونسائكم . قالوا : لا نفارق حكم التوراة ابدا ولا نستبدل به

غيره . قال : فاذا ابيتم عليّ هذه فهلمّ فلنقتل ابناءنا ونساءنا ثم نخرج الى محمد واصحابه رجالا مصلتي السيوف ، لم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فان نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه ، وان نظهر فلعمري لنجدن النساء والابناء . قالوا : نقتل هؤلاء المساكين ؛ فما خير العيش بعدهم ؟ قال : فان ابيتم علي هذه فان الليلة ليلة السبت ، وانه عسى ان يكون محمدا واصحابه قد امنونا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد واصحابه غرة . قالوا : انفسد علينا سبتنا ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا الا من قد علمت ، فاصابه ما لم يخف عليك من المسخ ؟ .. واعترضه نباش بن قيس ، احد زعمائهم قائلا : وكيف نصيب منهم غرة وأنت ترى امرهم كل يوم يشتد ، كانوا اول ما يحاصروننا انما يقاتلون بالنهار ويرجعون باليل ... فهم الان يبيتون الليل ويظلون النهار ، فاي غرة نصيب منهم ؟ قال كعب : والله ما بات رجل منكم ، منذ ولدته امه ، ليلة من الدهر حازما..

وبعد بضع وعشرين ليلة ، ادرك اليهود الا مناص من التسليم فاعلنوا نزولهم على حكم الرسول (صلى الله عليه وسلم) ...

عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) الى زعيمنا سعد بن معاذ الذي كانت بنو قريظة من مواليه في الجاهلية ، اصدار الحكم العادل ... وكان سعد آنذاك يمرّض من جراحه التي اصابته في معركة الخندق ، تشرف على تمريضه في المسجد امرأة مسلمة تدعى (رفيدة) كانت تداوي الجرحى وتتولى رعاية من لا اهل له من المقاتلين .

فجئنا به نحمله وبعضنا يناديه : يا ابا عمرو احسن في مواليك ، فان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) انما ولاك ذلك لتحسن فيهم ، فلما الحوا عليه قال : لقد آن لسعد الا تأخذه في الله لومة لائم .. وما لبث ان اصدر حكمه بقتل الرجال المحاربين من بني قريظة ، وتقسيم الاموال ، وسبي الذراري والنساء ... فما كان من الرسول (صلى الله عليه وسلم) الا ان قال له :(لقد حكمت فيهم بحكم الله...من فوق سبع سماوات .. وحكم رسوله !!)...

لم يكن رجال بني قريظة سوى مجرمين قتلة ، نقضوا العهد ، وانضموا الى الاعداء والحرب قائمة بيننا وبين الاحزاب ، وسعوا الى ذبحنا وابادتنا ، فكان نقضهم خيانة كبرى.ولم يكن عقابهم العادل المكافئ لفعلتهم سوى القتل ...

وقد انزلوا من حصونهم مقرنين في الاصفاد ، وحفرت لهم الخنادق ، ثم جيء بهم فوجا فوجا حيث لاقوا مصيرهم ودفنوا هناك ، وجاوز عددهم الستمائة رجل ، كان من بينهم كعب بن اسد وحيي بن اخطب زعيم بني النضير الذي حرضهم على نقض العهد ولجأ الى حصونهم بعد انسحاب الاحزاب...

وما ان تم تنفيذ الحكم برجال بني قريظة حتى انفجر بسعد جرحه فمات شهيدا بعد ان استجاب الله لدعائه يوم جرح في معارك الخندق : اللهم ان كنت ابقيت من حرب قريش شيئا فابقني لها فانه لا قوم احب الي ان اجاهدهم من قوم اذوا رسولك وكذبوه واخرجوه . اللهم وان كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة ، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة!!

الم بنا حزن عميق .. فها هو زعيمنا يفارق الحياة بعد ان ملأ بايمانه وعطائه مساحات واسعة من مسيرة الدعوة الطويلة ... ولكن ما خفف عنا وقع البلاء ، ان الله سبحانه استجاب لدعائه المترع بالاخلاص ... وانه توفي ونحن في قمة انتصاراتنا ضد الوثنية واليهودية على السواء...

ها نحن ، بعد ان هزمنا الاحزاب ، نتخلص من اخر كتلة يهودية في المدينة اختارت بنفسها - كسابقاتها من بني قينقاع وبني النضير – ان تقف من الاسلام موقف الحقد والعداء وان تنقض ميثاقها مع الرسول (صلى الله عليه وسلم).

ولم يكن نبينا (صلى الله عليه وسلم) ليستخدم اسلوب العقاب الجماعي ازاء اليهود الذين لم يروا منه – كما قال سيدهم كعب بن اسد - الا وفاء وصدقا. فكان لا يعاقب الا القبائل التي نقضت عهدها تاركا القبائل الاخرى تمارس حريتها الدينية والمعاشية كاملة ما دامت على عهدها .. وهكذا لم تؤد حادثة سوق الصاغة

التي ذهب ضحيتها احد اخواننا ، الا الى اجلاء مسببيها من بني قينقاع ، كما لم تؤد محاولة اغتيال الرسول (صلى الله عليه وسلم) الا الى طرد القائمين بها من بني النضير.. ولو ظلت بنو قريظة على عهدها ولم تمارس خيانتها الخطيرة في معركة الخندق لكان لها شأن اخر غير المصير الذي انتهت اليه..

هذا فضلا عن ان العقاب الذي كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) ينزله بخصومه اليهود كان يجيء دوما مكافئا الجرم الذي مارسته الكتل اليهودية ، اذ سمح لكل من بني قينقاع وبني النضير بالخروج الى اي مكان يشاؤون داخل الجزيرة ام خارجها ، بعد ان حقن دماءهم ، ولم يستخدم اسلوب القتل الا ازاء اولئك الذين خانوا العهد في ساحة القتال وتعاونوا مع الاعداء ، وهو العقاب الذي تمارسه جميع الشرائع والاديان . اما اليهود كافراد لا ينتمون الى هذه الكتلة او تلك من الكتل اليهودية ذات الوجود السياسي والعسكري ، فقد ظلوا يمارسون حقوقهم وحريتهم في مدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لهم ما لنا وعليهم ما علينا...

لم يبق في مدينة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من اليهود من يسعى الى طعننا او ضربنا من الخلف.. لقد فعلوها مرارا ... انهم يلدغون كالافعى ... وكالافعى ينسابون الى جحورهم .. ولكن بصيرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سدت عليهم كل الجحور ، وكشفتهم تحت الشمس فكان قطع رؤوسهم ليس بالمستحيل...

ولكن يبقى ثمة من يخشى منه ..الكتلة اليهودية الكبيرة المسلّحة في حصون خيبر.. أتراها ستسكت على الهزائم التي مني بها رفاقها في المدينة ؟؟ ولكن لا بأس .. فان فينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعرف جيدا كيف يكون الوقوف بالمرصاد !!

(١٢)

من مركز القوة الذي احرزناه بعد معركة الخندق ، قرر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ان يعتمر بنا في مكة مستهدفا تحقيق غايات ثلاث ، اولاها اشعار الناس جميعا ان علاقات الاسلام بالقوى الاخرى ليست شرطا ان تظل قائمة على الحرب والعنف والقتال ، وان بالامكان ان تسودها فترات من السلم والتهادن والتعايش المشترك على خلاف العقائد والاتجاهات .. وثانيها تجميد الصراع ضد قريش ذلك الذي استغرق معظم مساحات الدرب الطويل الذي اجتازته الدعوة، والالتفات الى الجهات الاخرى لغرض التركيز عليها ، سيما بعد التصعيد الذي شهده الصراع ضد اليهود من جهة وضد البيزنطيين وحلفائهم العرب من جهة اخرى ... واما ثالث الاهداف فهو اقرار حقيقة ان مكة ومقدساتها ليست حكرا للوثنية تمارس فيها تقاليدها بحرية ، وتسيطر على مقدراتها ، فتسمح بدخولها لمن تشاء وتمنع من تشاء .. على العكس اننا معشر المسلمين احفاد ابراهيم عليه السلام ابي الحنفية، وباني الكعبة ، احق واجدر بدخول الحرم الامن، وممارسة شعائرنا القائمة على التوحيد الخالص ، الذي من اجله اقيم البلد الحرام في الوادي غير ذي الزرع...

ثم ان اخواننا المهاجرين ، ورسولنا نفسه عليه الصلاة والسلام ، لا زالوا يحنون الى وطنهم القديم ويطوون جوانحهم – عبر سني الجهاد الطويل – على الشوق العارم الى الديار التي ولدوا فيها وترعرعوا بين اكنافها ، وآثروا دعوة الحق بين طرقاتها واحيائها ، ولا زلت اذكر كيف كان بلال والحمى تعتصره في ايام الهجرة الاولى ، يبوح بحنينه الطاغي منشدا:

الا ليت شعري هل ابيتن ليلة   بفخ وحولي اذخر وجليل؟
وهل اردن يوما مياه مجنة   وهل تبدون لي شامة وطغيل؟

وها هو رسولنا عليه السلام يجيب على السؤال ويعلن - في ذي القعدة - انه سيتجه الى مكة معتمرا ، لا يريد حربا ، ويستنفر العرب واهل البوادي من حوله ليخرجوا معه ويخشى ان تعرض له قريش بحرب ، او تصده عن البيت.

ابطأ كثير من الاعراب عن الاستجابة لنداء الرسول (صلى الله عليه وسلم) تخوفا من نشوب قتال مع قريش لا يهمهم من قريب او بعيد ، وانطلقنا مهاجرين وانصارا ومن لحق بنا من مسلمي المناطق المجاورة نسوق الهدي صوب مكة ، وامرنا الرسول عليه السلام باستبدال ملابسنا بثياب الاحرام ، ليأمن الناس الحرب وليعلمهم أنه إنما خرج زائرا لبيت الله الحرام ومعظما له. وعندما بلغنا عسفان، الواقعة على بعد مرحلتين من مكة، لقينا من يقول لنا ان قريشا قد خرجت بمقاتليها وفرسانها لمجابهتنا ومنعنا من دخول مكة مهما كان الثمن !! فكان جواب الرسول (صلى الله عليه وسلم): (يا ويح قريش !! لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فان هم اصابوني كان ذلك الذي ارادوه ، وان اظهرني الله عليهم دخلوا في الاسلام وافرين . وان لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة . فما تظن قريش ؟ فو الله لا ازال اجاهد على الذي بعثني حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة) وسرعان ما طلب من احد الادلاء ان يقودنا عبر طرق غير مسلوكة، الى مكان اخر تجنّباً للصدام مع قريش.. فقادنا الدليل في أراضٍ وعرة ومسالك جبلية، وانتهى بنا الى ارض سهلة عند منعطف الوادي اسفل مكة تدعى الحديبية . وعندما كان رسولنا عليه السلام يعلن (لا تدعوني قريش اليوم الى خطة يسالونني فيها صلة الرحم الا اعطيتهم اياها)، كان فرسان قريش يكرّون عائدين اعتقادا منهم ان محمدا(صلى الله عليه وسلم) اجتاح مكة عنوة!!

ولكن قريش ، وقد لمست رغبة الرسول صلى الله عليه واصراره على دخول مكة واداء العمرة ، رأت ان تبعث اليه من يكلمه بالامر ويقنعه بان لا جدوى من محاولته تلك ، واعتقدت ان مجرد السماح لنا بدخول بلدهم ، بعد سني الصراع الحامي، يمثل هزيمة منكرة لقريش ، زعيمة الوثنية ، وتنازلا لخصومها كي يطأوا

حرمها المقدس ... وسوف تقول العرب : لقد نكصت قريش عن حماية البيت الحرام ، ولم تعط الامر حقه ، ثم ما تلبث ان تنصرف عنها .

كان بديل بن ورقاء الخزاعي اول سفراء قريش الى معسكرنا ، قدم الى الرسول (صلى الله عليه وسلم) يصحبه رجال من خزاعة ، فكلموه وسالوه ما الذي جاء به ؟فاخبرهم انه لم يأت يريد حربا وانما جاء زائرا للبيت ومعظما لحرمته وانه سوف يضطر لقتالهم اذا صدوه عن هدفه .. فرجع بديل الى قريش وقال : يا معشر قريش انكم تعجلون على محمد ، وان محمدا لم يأت لقتال وانما جاء زائرا هذا البيت. فما كان من زعماء قريش الا ان اتهموه وعنفوه وقالوا له: وان كان جاء لا يريد قتالا ، فو الله لا يدخلها علينا عنوة ابدا ، ولا تحدث بذلك عنا العرب. ثم ما لبثوا ان بعثوا الينا سفيرهم الثاني : مكرز بن حفص الذي عاد بما كان رفيقه قد عاد به الى زعماء قريش .

وكان الحليس بن علقمة ، سيد الاحابيش ، السفير الثالث ، فلما رآه الرسول عليه السلام مقبلا قال ، ان هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه، فلما رأى الهدي ينساب صوبه في عرض الوادي ، قفل عائدا قبل ان يقابل الرسول (صلى الله عليه وسلم) اعظاما لما شهد، واخبر القرشيين بالذي رأى ، فقالوا له: اجلس انما انت اعرابي لا علم لك !! فغضب من ذاك وقال منددا : يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم ... ايصد عن بيت الله من جاء معظما له ؟ والذي نفس الحليس بيده لتخلن بينه وبين ما جاء له ، أو لأنفرنّ بالاحابيش نفرة رجل واحد . فقالوا له : مه يا حليس حتى نأخذ لا نفسنا ما نرضى به . ثم ما لبثوا ان بعثوا سفيرهم الرابع : عروة بن مسعود الثقفي . وعندما جلس بين يدي الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال : يامحمد ، اجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم الى بيضتك لتفضها بهم ؟ انها قريش قد خرجت ، وقد لبسوا جلود النمور ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم ابدا . وايم الله لكأنني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا !! فعنفه ابو بكر الذي كان يجلس وراء الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقال : انحن ننكشف عنه ؟

وراح عروة يتناول لحية الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو يكلمه، والمغيرة بن شعبة واقف بسلاحه على رأس الرسول (صلى الله عليه وسلم) فجعل يقرع يد المفاوض القرشي ويقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قبل ان لا تصل اليك !! فيجيبه عروة : ويحك ما افظك واغلظك ... ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) يبتسم!!

وعاد عروة الى قريش ليعلمها بما حدثه به الرسول (صلى الله عليه وسلم) من انه لم يات يريد حربا، وليقول لها : يا معشر قريش اني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، واني والله ما رأيت ملكا في قوم قط مثل محمد في اصحابه . ولقد رايت قوما لا يسلمونه لشيء ابدا ، فروا رأيكم.

وراى الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يبعث من جهته سفيرا الى قريش ليوضح لهم الهدف الذي جاء المسلمون من اجله ، فاختار خراش بن امية الخزاعي لاداء المهمة ، الا ان خراشا ، ما ان بلغ مكة ، حتى عقر اشرافها بعيره وارادوا الفتك به لولا أن منعته الاحابيش فخلوا سبيله لكي ما يلبث ان يرجع الينا .. بل ان قريشا تجاوزت ذلك فارسلت خمسين من رجالها المسلحين ليتسللوا الى معسكرنا ويصيبوا بعض رجالنا في محاولة لاستفزاز الرسول عليه السلام ودفعه الى اتخاذ اجراء انتقامي يعزز موقف قريش لدى العرب، لكن الرسول عليه السلام فوت عليهم الفرصة بعدما جيء بهؤلاء الرجال اسرى دون عناء كبير ، فعفا عنهم وخلى سبيلهم.

ولا زلت اذكر كيف انني اتيت يوما شجرة فكسحت شوكها ثم اضطجعت في ظلها ، فاتاني اربعة من المشركين من اهل مكة ، فتحولت الى شجرة اخرى، فعلقوا سلاحهم ثم اضطجعوا ، فبينما هم كذلك اذ نادى مناد من اسفل الوادي : يا للمسلمين ، لقد قتل احد اصحابكم .. فاستللت سيفي على اولئك الاربعة وهم رقود واخذت سلاحهم ثم قلت : لا يرفع احدكم رأسه الا ضربت الذي فيه عيناه !! ثم جئت

بهم اقودهم الى الرسول عليه السلام ، وجاء عمي برجل آخر .. حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ في سبعين من المشركين فنظر اليهم وقال: (دعوهم يكن لهم بدأ الفجور) .. وعفا عنهم .

(١٣)

لم ييأس الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وكأنه كان يرى بثاقب بصره الثمار الحلوة التي ستجنيها الدعوة اذا ما سادت العلاقات السلمية فترة من الوقت مع قريش زعيمة الوثنية ، فدعا عثمان بن عفان ليكون سفيرا الى قريش .... وانطلق عثمان الى مكة ودخل في جوار قريب له يدعى ابان بن سعيد بن العاص ريثما يبلغ زعماء قريش ما جاء به ، فاجابه هؤلاء : ان شئت ان تطوف في البيت فطف ! فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله . وراح عثمان يتصل بمسلمي مكة المستضعفين من الرجال والنساء ويقول لهم (ان رسول الله يبشركم بالفتح) ، فكانت الدموع تسيل من اعينهم فرحا بذلك وهم يقولون : اقرىء على رسول الله منا السلام ، ان الذي انزله بالحديبية لقادر ان يدخله بطن مكة .

وما لبث قريش ان اعتقلت عثمان .. وبعد قليل بلغنا انه قد قتل !!

لم يجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بدأ من التهيؤ للقتال ، بعد فشل كل محاولاته الودية لدخول مكة ..وبعد الموقف السيء الذي وقفته قريش من سفرائنا اليها. ودعانا الى البيعة على عدم الفرار والصمود بوجه قريش، فاندفعنا اليه نبايعه وهو واقف تحت شجرة ظليلة ... ولم يتخلف عن مبايعته احد ... الا ان الانباء لم تلبث ان جاءت لتنفي ما اشيع عن مقتل عثمان .. واعقب ذلك قيام قريش بارسال سهيل بن عمرو سفيرا خامسا الى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ربما لتخوفها من استعدادنا للقتال ومبايعتنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) على الصمود ، وكلفت رجلها ان يسعى جاهدا لمصالحة محمد (صلى الله عليه وسلم) شرط ان يرجع عنهم هذا العام ، كي لا تتول العرب انه دخلها عليهم عنوة ابدا.

التقى سهيل بالرسول (صلى الله عليه وسلم) وادرك الرسول عندما لمحه قادما من بعد ان قريشا تسعى للصلح ، وجرى بين الطرفين حوار طويل انتهى بالموافقة على الصلح ، ولم يتبق الا صياغة الوثيقة .. حينها وثب عمر بن الخطاب فاتى ابا بكر وقال:

يا ابا بكر اليس برسول الله ؟ قال: بلى .. قال : اولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ... قال : فعلام نعطي الدنيا في ديننا ؟ اجاب ابو بكر : يا عمر الزم امره فاني اشهد انه رسول الله . قال عمر : وانا اشهد انه رسول الله.. ورأى عمر ، الذي فطر على الصراحة والوضوح ، ان يلتقي بالرسول (صلى الله عليه وسلم) نفسه ويطرح عليه الاسئلة نفسها ... فكان جواب الرسول (صلى الله عليه وسلم) : انا عبد الله ورسوله ، لن اخالف عن امره ولن يضيعني .

ثم ما لبث ان دعا عليا ليملي عليه صيغة الصلح وقال : اكتب باسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل : لا اعرف هذا ولكن اكتب : باسمك اللهم. فكتبها. ثم قال لعلي اكتب (هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو) ، فقال سهيل : لو شهدت انك رسول الله لم اقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم ابيك ، فاجابه الرسول الى ما اراد ...

كان الصلح يقضي بعقد هدنة امدها عشر سنوات ، وان نرجع هذا العام ولنا ان ندخل مكة في العام المقبل والسيوف في اغمادها ، وان لكل قبيلة الحق بالدخول في عهد مع اي من الطرفين تشاء .. وان من اتى محمدا (صلى الله عليه وسلم) من قريش بغير اذن وليه فعليه ان يرده ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد (صلى الله عليه وسلم) فانها لا تجد نفسها ملزمة برده .. وسرعان ما اعلنت خزاعة دخولها في عقد محمد (صلى الله عليه وسلم) وعهده ، بينما دخلت بنو بكر عقد قريش وعهدها..

وحدث ، قبيل اتمام املاء الشروط ، ان وصل معسكرنا ابو جندل ابن المفاوض القرشي سهيل بن عمرو ، وهو يرسف بالحديد ، فانقض عليه ابوه يضرب وجهه ويأخذ بتلابيبه قائلا للرسول ان شروط الصلح قد ابرمت قبل وصول ابي جندل ، فاجابه الرسول صدقت .. وراح ابو جندل يصرخ باعلى صوته ... يا معشر المسلمين أأرد الى المشركين يفتنوني في ديني ؟ فما كان جواب الرسول (صلى الله عليه وسلم) الا ان قال : يا ابا جندل اصبر واحتسب فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ... انا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، واعطيناهم على ذلك واعطونا عهد

الله ... وانا لا نغدر بهم .. ووثب عمر بن الخطاب وراح يمشي الى جوار ابي جندل وهو يقول : اصبر يا ابا جندل فانهم المشركون وانما دم احدهم دم كلب.

وعندما تم املاء الكتاب شهد على الصلح ابو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن ابي طالب وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن سهيل بن عمرو وسعد بن ابي وقاص ومحمد بن مسلمة ، وعن الجانب المشرك مكرز بن حفص وحويطب بن عبد العزى...

لم نرتح لاحداث الصلح ونتائجه نحن الذين جئنا نحمل املا بدخول مكة والطواف في البيت العتيق ... وهانحن نعود من حيث جئنا دون ان يتحقق املنا ... هذا فضلا عما في شروط الصلح نفسه وصيغته من امور كانت تحمل قدرا من التنازل للمشركين ... ثم ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يستشر كبار اصحابه على غير ما الفنا منه ... ثم جاءت قضية تسليم ابي جندل لأعدائنا اثارة جديدة لاعصابنا المرهقة وحنقنا الذي عبر عنه عمر صراحة ... ودخل علينا هم عظيم كاد ان يهلكنا !! وعندما امرنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) بنحر الهدي وحلق رؤوسنا ايذانا بالعودة الى المدينة لم نستجب له لاول مرة في حياتنا !! فما كان من الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، بعد استشارة زوجته ام سلمة ، الا ان يخرج علينا ويحلق رأسه ، فلما رأينا ذلك رحنا ننحر ونحلق ونحن نتميز غيظا والما حتى كاد بعضنا يقتل بعضا غما ... دون ان ندرك ان الصلح الذي تمخض عن مرونة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وتنازله عن بعض الشكليات في صياغة الوثيقة وبنودها ، كان اكبر فتح في تاريخ دعوتنا منذ انبعاثها قبل تسع عشرة سنة ، وان الرسول عليه السلام بموقفه هذا قد فتح طريقا جديدا امام الدعوة الاسلامية لم يكن احد منا يطمح بفتحه قبل مرور سنين وسنين...

في طريق العودة نزلت آيات القرآن الكريم لتؤكد البعد الحقيقي للصلح مع زعيمة الوثنية **﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۞ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾** وتستطرد الايات الكريمة مؤكدة دخول المسجد الحرام عما قريب وتحقق رؤيا الرسول (صلى الله عليه وسلم) التي تجيء دوما

كفلق الصبح ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ ..

وما من شك ان مجرد دخول قريش في صلح معنا يمثل اعترافا منها بدولتنا الفتية ودينا الجديد بعد حرب الافناء الطويلة التي شنتها ضدهما.

ولما كانت قريش هي زعيمة الوثنية وحامية حمى الحرم المقدس ، فان توابعها من القبائل العربية المنتشرة في الجزيرة رأت نفسها في حلّ من الانتماء لزعامتها والارتباط بمصيرها ، وان لها الحرية المطلقة في ان تختار المعسكر الذي تراه مناسبا دخولا في دينه او تعاهداً معه...

وقد فتح ذلك المجال امامنا لكي ننشط ونتشر في الافاق لكسب مزيد من الاصدقاء والحلفاء والمنتمين الى الدين الجديد ، مستغلين من جهة اخرى فترة السلم التي اتاحتها شروط الحديبية ... وتمكنت الدعوة من شق طريقها جنوبا صوب اليمن وبذلك اصبحت الوثنية العربية محاطة بافواج المسلمين من كل مكان...

وصدق الله العظيم ... لقد فتح صلح الحديبية لرسوله الكريم فتحا مبينا وما كان الله سبحانه ليضيع رسوله .. او دينه..

(١٤)

لم ينسَ الرسول (صلى الله عليه وسلم) ان ينتزع من الفرصة الثمينة التي اتاحها صلح الحديبية كل ما يستطيع انتزاعه ، فضلا عن كسب الناس الى الاسلام وصداقتهم لدولته ... صراعا ضد القوى الاخرى المضادة للاسلام من اليهود والبيزنطيين، فضلا عن التجمعات القبلية البدوية المتشرة في الصحراء والتي كانت تنتظر الفرصة السانحة لانزال الضربات بنا . وها هو الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وقد فصم عقدها بهدنته مع زعيمتها قريش ، يوجه اليها السرايا تلو السرايا ليصدها عن المضي فيما تبتغيه وليشعرها بمقدرة المسلمين على العقاب.

خرجت وثلاثون رجلا بقيادة عمر بن الخطاب الى احدى قبائل هوازن وكان يسير بنا ليلا ويكمن نهارا ، وما ان سمع اعداؤنا خبر هجومنا المباغت حتى فرّوا فقفلنا عائدين ولم نلق كيدا.

وخرج ابو بكر الصديق الى نجد ... وبشير بن سعد الى بني مرة على رأس ثلاثين رجلا اصيب بعضهم فاضطر عائدا الى المدينة . وانطلق غالب بن عبد الله ، يقود مائة وثلاثين رجلا ، الى بني عبد ثعلبة ، فاغاروا عليهم واستاقوا نعمهم وعادوا بها الى المدينة . وما لبث بشير بن سعد ان خرج ثانية على رأس سرية اخرى للهجوم على بعض قبائل من غطفان بدأت تتحرك للهجوم علينا ، فباغتها سعد واستاق نعمها ...

وتتابعت السرايا الاسلامية ، مغادرة المدينة منطلقة الى اهدافها التي كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يحددها لها في قلب الصحراء..

ولقد اتيح لي يومذاك ان اشارك في سرية اخرى يقودها غالب بن عبد الله الليثي للاغارة على بني الملوح بمنطقة تدعى الكديد ... وكان بيني وبين الشهادة خيط رفيع... ولكني نجوت باعجوبة ... كنا قد نزلنا بطن كديد عصرا فبعثني اصحابي

استطلع لهم الاخبار، فعمدت الى تل يطلعني على حي بني الملوح فانبطحت عليه قبيل المغرب فخرج منهم رجل فنظر فرآني منبطحا على التل فقال لامرأته : والله اني لارى على هذا التل سوادا ما كنت رايته اول النهار فانظري لا تكون الكلاب جرّت بعض اوعيتك ! فنظرت فقالت : والله ما فقدت شيئا . قال: فناوليني قوسي ، فناولته فرماني بسهم فوضعه في جنبي ، فنزعته فوضعته ، ولم اتحرك ، ثم رماني بالاخر فوضعه في رأس منكبي فنزعته فوضعته ، ولم اتحرك ، فقال الرجل : اما والله لقد خالطه سهماي ولو كان رجلا لتحرك.

وامهلناهم ، حتى اذا سكنوا وذهبت عتمة الليل ، شنّنا عليهم الغارة فقتلنا من قتلنا واستقنا النعم وقفلنا عائدين بعد ان جاءنا منهم ما لاقبل لنا به ... ولم يكن عدد افراد سريتنا يجاوز البضعة عشر رجلا !!

والى بني عامر انطلق شجاع بن وهب في اربعة وعشرين رجلا فشن عليهم الغارة واصاب نعما وشاء.

وسار ابو عبيدة عامر بن الجراح في ثلاثمائة من المهاجرين والانصار، مستهدفين قبائل جهينة .. وكان الطريق طويلا ، فنفد ما معهم من قوت ، وراح الجوع يعتصرهم ، وقد حدثني احد رفاقي الانصار قائلا : كان ابو عبيدة يقبض لنا قبضة من التمر ، ثم تمرة تمرة ، فنمصها ونشرب عليها الماء الى الليل حتى نفد ما في الجراب، فكنا نجني الخبط ، اذ جعنا جوعا شديدا . وما لبث البحر ان القى الينا حوتا ميتا فاكلنا منه حتى شبعنا.

وسرايا اخرى قادها مسلمون اخرون ، انطلقت الى اهدافها بشجاعة وعادت وقد لقنت الاعراب ودعاة الفتنة دروسا لن ينسوها.

ولم يقف الرسول (صلى الله عليه وسلم) عند حد اعتماد الهدنة مع قريش لتأديب الاعراب ، بل نشط –كذلك– في توجيه دعاته وسفرائه الى كبار امراء العرب الوثنيين وزعمائهم ومشايخهم يدعوهم الى الاسلام ، في نفس الفترة التي كان

قد وجه فيها سفراءه ومبعوثيه الى اباطرة العالم وملوكه يعرض عليهم الدعوة التي بعث بها الى الناس جميعا.

ارسل العلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوى العبدي ، امير البحرين والمناطق الشمالية الشرقية من الجزيرة ، وكتب اليه كتابا جاء فيه (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد النبي رسول الله الى المنذر بن ساوى . سلام عليك فاني احمد اليك الله الذي لااله الا هو . اما بعد فان كتابك جاءني ورسلك ، وان من صلى صلاتنا واكل ذبيحتنا واستقبل قبلتنا فانه مسلم، له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين ، ومن أبى فعليه الجزية) . فاسلم المنذر ومعه الكثيرون من رعاياه ، اما الذين بقوا على مجوسيتهم فصالحهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) على الجزية، على الا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم ، وبقي العلاء بن الحضرمي هناك اميرا من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في البحرين .

وبعث عمرو بن العاص الى جيفر وعباد ابني الجلندى الازديين بعمان، فصدقا النبي واقرا ما جاء به ، ففرض الزكاة على اموال مسلميهم والجزية على من بقي على مجوسيته من اتباعهم.

والى زعماء اليمن ومشايخها وبقايا ملوك حمير بعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) معاذ بن جبل ومالك بن مرارة يحملان اليهم والى اهل اليمن دعوة الاسلام فاسلم الكثيرون منهم .

كما كتب (صلى الله عليه وسلم) الى امراء كندة وحضرموت رسائل مطولة يشرح لهم فيها تعاليم الاسلام وشرائعه ، فاستجاب له الكثيرون منهم وتبعتهم قبائلهم. والى جماعة من العبيد وقطاع الطريق في جبل تهامة كتب الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، بعد ان استقبل وفدا منهم : (هذا كتاب من محمد النبي رسول الله لعباد الله العتقاء . انهم ان آمنوا واقاموا الصلاة واتوا الزكاة فعبدهم حر ومولاهم محمد . ومن كان منهم من قبيلة لم يرد اليها وما كان فيهم من ادم اصابوه او مال اخذوه فهو لهم، وما كان لهم من دين في الناس رد اليهم ، ولا ظلم عليهم ولا عدوان) !!

والى اسيبخت بن عبد الله ، صاحب هجر ، شرقي الجزيرة ، كتب الرسول (صلى الله عليه وسلم): (...انه قد جاءني الاقرع بكتابك وشفاعتك لقومك ، واني شفعتك وصدقت رسولك في قومك ، فابشر فيما سالتني وطلبتني بالذي تحب ... فان تجئنا اكرمك وان تقعد اكرمك ، اما بعد فاني لا استهدي احدا ، وان تهد الي اقبل هديتك ، وقد حمد عمالي مكانك ، واوصيك باحسن الذي انت عليه من الصلاة والزكاة وقرابة المؤمنين ، واني قد سميت قومك بني عبد الله فأمرهم بالصلاة وباحسن العمل ، وابشر والسلام عليك وعلى قومك المؤمنين).

وقبائل اخرى كثيرة تلقت دعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) للانضواء تحت راية الدين الجديد ... وقد دونت اسماءها عندي ثم احصيتها فاذا بها تجاوز الخمسين عددا..

ولم يكن الجواب –دائما – بالايجاب ، فان بعض القوم اصروا – لهذا السبب او ذاك – على التشبث بجاهليتهم وضلالهم .. وقد وردنا من احد ادعياء النبوة المسمى مسيلمة كتاب يجرؤ فيه ان يقول للرسول عليه السلام بانه نبي مثله ، ويسأله ان يقاسمه الارض ، ويتهم قريشا بالظلم !! فكتب اليه النبي (صلى الله عليه وسلم) : (بلغني كتابك الكذب والافتراء على الله ، وان الارض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين)...

كما ان سرية مكونة من خمسة عشر رجلا بقيادة عمرو بن كعب الغفاري خرجت الى ذات اطلاح على حدود الشام .. فوجدوا جمعا كثيرا فدعوهم الى الاسلام فابوا ان يجيبوا ، وانقضوا على الدعاة فابادوهم جميعا ، وتحامل عمرو حتى بلغ المدينة وحكى لنا عن مصرع اصحابه..

لم تكن الدعوة الى الدين الجديد طريقا مفروشا بالورد .. كان عليها ان تقدم المزيد من التضحيات قبل ان تتمكن من تثبيت اقدامها في الصحراء .

(١٥)

اخذ الرسول (صلى الله عليه وسلم) ينتظر الفرصة المؤاتية لضرب التجمع اليهودي العسكري الاخير في خيبر والمواقع المجاورة ، بسبب ما كانت تمارسه ضد الاسلام ، فمنها انطلق زعماء اليهود لدعوة القبائل العربية وتحزيبها ضد المسلمين ، ومنها خرج حيي بن اخطب ودفع بني قريظة الى الانتفاض في لحظات الخندق العصيبة . وقد غدت خيبر بمرور الايام ملجأ يأوي اليه اليهود المبعدون عن المدينة ، ينتظرون الفرصة للانتقام من الاسلام ، واسترداد مواقعهم ومصالحهم التي جردهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) منها.

وقد اتضح هذا في الايام القلائل التي اعقبت هزيمة بني قريظة ، اذ بلغت خيبرانباء انتصارنا هناك ، فاتصل بعض اليهود بزعيمهم سلام بن مشكم وسألوه الرأي فاجابهم : نسير الى محمد بما معنا من يهود خيبر فلهم عدد ، ونستجلب يهود تيماء وفدك ووادي القرى ، ولا نستعين باحد من العرب ، فقد رأيتم في غزوة الاحزاب ما صنعت بكم العرب ... ثم نسير اليه في عقر داره . فقالت اليهود : هذا هو الرأي !! ولكن بعض الزعماء عارضه في الاقدام على مجازفة كهذه ، غير مأمونة النتيجة.

وفضلا عن هذا كله فان يهود خيبر كانوا السبب في خروج سرية في العام الماضي يقودها علي بن ابي طالب كانت وجهتها فدك ، حيث يقطن حي من بني سعد بن بكر كانوا قد سعوا الى مد ايديهم لاولئك اليهود لقاء ان يمنحوهم جزءا من ثمار خيبر.

وهاهم الان يتحالفون مع غطفان في محاولة جديدة ضد المدينة . وقد علم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بما يدور في خلدهم فاخذ يتهيأ لقتالهم ويمهد لذلك بارسال مجموعات منا معشر الانصار ، حيث كنا نعرف المنطقة جيدا ، لاغتيال بعض قادة اليهود هناك ، كسلام بن ابي الحقيق واسير بن رزام الذي كان يجتمع ببني

غطفان ليعقد معهم العهود والاتفاقات ليكونوا مع اليهود في حالة دخول اهل خيبر في حرب معنا.

وقد حدثني صهري عبد الله بن عتيك امير السرية الانصارية ذات الرجال الخمسة والتي كلفها الرسول (صلى الله عليه وسلم) مهمة قتل الزعيم اليهودي سلام بن مشكم الملقب بابي رافع فقال: لما دنونا من الحصن وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم ، قلت لاصحابي : اجلسوا مكانكم فاني سانطلق واتلطف الى البواب لعلي ادخل .

ثم اقبلت ، حتى اذا دنوت من الباب تقنعت بثوبي كاني اقضي حاجة ودخل الناس ، فهتف بي البواب : ان كنت تريد ان تدخل فادخل فاني اريد ان اغلق الباب. فتناولت المفاتيح التي كان البواب قد علقها على وتد هناك ثم اتجهت الى حيث يقيم ابو رافع . وكان ابو رافع يسمر في علالي ، فلما ذهب عنه اهل سمره صعدت اليه ، فجعلت كلما فتحت بابا اغلقته علي من داخل .. حتى انتهيت اليه، فاذا هو في بيت مظلم وسط عياله ، لا ادري اين هو من البيت . قلت : ابا رافع قال : من هذا ؟ فاهويت نحو الصوت اضربه بالسيف ، فما اغنى شيئا وصاح، فخرجت من البيت ومكثت غير بعيد ، ثم دخلت اليه وقلت : ما هذا الصوت يا ابا رافع ؟ قال: لامك الويل ، ان رجلا بالبيت ضربني بالسيف ، فانقضضت عليه ووضعت حد السيف في بطنه حتى اخرجته من ظهره ، فعرفت اني قد قتلته . وجعلت افتح الابواب بابا فبابا ، حتى انتهيت الى الارض ، فوقعت فانكسرت ساقي فعصبتها بعمامتي ثم انطلقت حتى جلست عند الباب فقلت : والله لا ارجع الليلة حتى اعلم اقتلته ام لا ؟ فلما صاح الديك قام الناعي على السور ينعى ابا رافع ، فانطلقت الى اصحابي وقلت : النجاء ... قد قتل الله ابا رافع.

وبعد ابي رافع جاء دور اسير بن رزام حيث ندب الرسول (صلى الله عليه وسلم) ثلاثين رجلا بقيادة عبد الله بن رواحة ، فاستدرجوه وعددا من اصحابه واحتالوا عليهم وقتلوا اميرهم (اسير) ومعظم اصحابه ، ثم قفلوا عائدين الى المدينة دون ان يفقدوا احدا...

ومالبث الرسول (صلى الله عليه وسلم) - بعد ان امن ظهر الدعوة من قريش بصلح الحديبية – ان وجد الفرصة سانحة لتوجيه نشاطه صوب الشمال حيث يقبع الخطر اليهودي الذي لا يكف عن التآمر والعدوان ، متمثلا بخيبر والمواقع المجاورة ..وفي مطلع هذا العام (السابع للهجرة) انطلق الى هناك على رأس حملة استنفر لها الراغبين في الجهاد فحسب دون الغنائم . ذلك ان يهود خيبر كانوا اقوى الطوائف اليهودية بأسا واعظمها دربة على القتال ، فكانت مجابتها تتطلب رجالا اولي عزم شديد..

بلغ عددنا الفا واربعمائة مقاتل يصحبنا مائتا فارس ، وخرج معنا عدد من النسوة ليداوين الجرحى وينسجن الملابس ويهيئن الطعام .

جعل رسولنا (صلى الله عليه وسلم) هدفه اول الامر السيطرة على الطريق الواصل بين خيبر وغطفان ليحول بين هؤلاء وبين امداد حلفائهم في خيبر. وكان بنو غطفان لدى سماعهم بتوجهنا الى خيبر قد خرجوا ليساندوا اليهود ضدنا لقاء نصف ثمار خيبر لذلك العام ، فاضطرهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) للعودة الى ديارهم بعد ان اوهمهم ان هجومنا متجه اليهم ، ومن ثم انفرد بخيبر واصدر امره بمباغتتها فجرا بينما كان رجال خيبر قد خرجوا الى مزارعهم بمساحيهم ومكاتلهم ، فلما رأوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) يقود جيش المسلمين تملكهم الخوف ونادوا : (محمد والخميس) وهربوا لائذين بحصونهم ، وهيأوا انفسهم لحصار طويل ، فنادى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ملقيا مزيدا من الرعب في قلوبهم : (الله اكبر ، خربت خيبر ، انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين)!!

وبدأ الهجوم وراحت حصون خيبر الممتدة في المنطقة على شكل سلاسل ، والمنقسمة الى ثلاث مناطق هي النطاة والشق والكتيبة ، ويدافع عنها زهاء عشرة الاف مقاتل، تسقط بايدينا حصنا بعد حصن ... وكان اولها سلاسل حصون ناعم والقموص، وراح عدد من المدافعين يتسللون هاربين من حصونهم ، واتصل بعضهم بالرسول (صلى الله عليه وسلم) ودله على نقاط الضعف في مواقع اليهود.

ومن اجل ان يعجل الرسول (صلى الله عليه وسلم) بكسب المعركة حضنا على الجهاد واخبرنا ان اليهود قد اسلمهم حلفاؤهم وهربوا ، وانهم قد تجادلوا واختلفوا فيما بينهم .. الامر الذي زاد من ثقتنا بالنصر.

وكان اخر الحصون مقاومة لنا سلاسل الوطيح والسلالم وقلعة الزبير ، حيث عصى اليهود وظلوا يقاومون بضعا وعشرين ليلة ، جرت خلالها مبارزات فردية بين فرساننا وفرسانهم ، وهجمات عديدة قادها كبار الصحابة وسقط فيها ما يقرب من مائة قتيل يهودي وخمسة عشر مسلما . حتى اذا ايقن المدافعون بالهلكة سألوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) ان يجليهم عن المنطقة وان يحقن دماءهم فاجابهم الى طلبهم ، فلما نزلوا اليه عرضوا عليه ان يبقيهم في ارضهم لقاء ان يدفعوا للمسلمين نصف حاصلاتهم . فوافق الرسول (صلى الله عليه وسلم) على العرض تقديرا لامكاناتهم الزراعية ورغبة منه في الافادة من اية طاقة في اعمار الاراضي واستثمارها ... الا انه بين لهم ان موافقته هذه غير ملزمة الى الابد (فانا ان شئنا ان نخرجكم اخرجناكم) ، لما يعرفه عن طبع اليهود من عدم الوفاء بالعهد ، ومن انتهاز اية فرصة تسنح للغدر والخيانة . وقد جرت فعلا اولى محاولات الغدر ، بعد ساعات من فتح خيبر ، على يد زينب ابنة الحارث ، زوجة سلام بن مشكم ، اذ اهدت للرسول عليه السلام شاة مشوية نثرت فيها السم فلما مضغ من ذراعها مضغة لم يسغها ولفظها ... وكان مبشر بن البراء قد اكل هو الآخر فمات بعد قليل .. وجيء بالجانية فاعترفت وقالت للرسول عليه السلام : بلغت من قومي ما لم يخف عليك ، فقلت ، ان كان ملكا استرحت منه وان كان نبيا فسينجو !! فتجاوز عنها رسول الله(صلى الله عليه وسلم)!!

(١٦)

كان على الرسول (صلى الله عليه وسلم) ان يتخذ موقفا حاسما ازاء القبائل العربية الشمالية الموالية للبيزنطيين ، بعد المواقف الغادرة التي اتخذها بعض امرائها من دعاتنا ورسلنا الى الشام . وكانت حادثة مقتل الحارث بن عمير الازدي مبعوث الرسول (صلى الله عليه وسلم) الى ملك بصرى على يد شرحبيل بن عمرو الغساني في مؤتة هي التي دفعت الرسول عليه السلام لتأديب عرب الشمال الموالين للبيزنطيين. فجهز – في جمادى الاولى من هذا العام : الثامن للهجرة – جيشا كبيرا يبلغ ثلاثة الاف مقاتل ولى قيادته زيد بن حارثة ، وامره بالانطلاق صوب الشمال لتأديب القبائل العربية على فعلتها – ان لم تستجب لدعوة الاسلام- واشعارها بقوة الدولة الاسلامية وقدرتها على ردع الغادرين والمعتدين الذين يرون في الحماية البيزنطية سببا يدفعهم الى الجرأة والعدوان ، ولاستطلاع طبيعة الارض هناك.

ونظرا لبعد الطريق واحتمال مجابهة قوى كثيرة العدد ، الحق الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقائد الجيش قائدين احتياطيين هما جعفر بن ابي طالب وعبد الله بن رواحة ، يتوليان الامر ، احدهما بعد الاخر ، في حالة اصابة القائد الاول ، وكانت كثرة مشاغل الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد منعته من قيادة الجيش بنفسه ، ومن اجل ضمان وحدة قواته ومنعا للفوضى والاضطراب في ارض متطرفة شمالا عين هؤلاء القادة الاحتياطيين.

خرج المسلمون رجالا ونساء واطفالا لتوديعنا ونحن نغادر المدينة ميمّمين شمالا ، وتعالت اصواتهم وهم ينادون (صحبكم الله ودفع عنكم وردكم الينا صالحين) فراح عبد الله بن رواحة الشاعر ينشد:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة	وضربة ذات فرع تقذف الزبدا
او طعنة بيدي حران مجهزة	بحربة تنفذ الاحشاء والكبدا
حتى يقال ، اذا مروا على جدثي	يا ارشد الله من غاز وقد رشدا

وعندما ودعنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) وانصرف راجعا انشد ابن رواحة:

خلف السلام على امرؤ ودعته　　　في النخل خير مشيع وخليل

توغلنا شمالا حتى بلغنا معان جنوبي الاردن فعسكرنا فيها ، وبلغ قادتنا ان الامبراطور البيزنطي هرقل قد سمع نبا تحركنا فامر قائد جيشه ثيودورس بالتقدم لمجابهتنا ، فتقدم هذا على راس حشد كبير من الروم وعسكر في مآب من ارض البلقاء ، وهناك التحقت به القبائل العربية الموالية من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلى ، بلغوا اعداداً كبيرة ، وكان يقودهم جميعا شرحبيل بن عمرو الغساني .

ظللنا معسكرين في معان طيلة ليلتين نتدبر امرنا ، وقال بعضنا : نكتب الى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فنخبره بعدد عدونا ، فاما ان يمدنا بالرجال واما ان يأمرنا بامره فنمضي له ، الا ان عبد الله بن رواحة اندفع بفورة حماس يعرفها الشعراء جيدا ، مقترنة بزخم ايماني لا ترده روية او تمهل ، وراح ينادي فينا : يا قوم ، والله ان التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون : الشهادة!! وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، إلا بهذا الدين الذي اكرمنا الله به ، فانطلقوا فانما هي احدى الحسنين اما ظهور واما شهادة!!

فاجابه بعضنا ممن لم يعرف خوفا يوما او تراجعا ، وممن يدرك جيدا كم هو عظيم الهدف الذي خرجنا من اجله ، وكم هي غالية (الشهادة) على قلوب اصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : قد والله صدق ابن رواحة ...

غادرنا معسكرنا في معان وانطلقنا شمالا حتى اذا بلغنا تخوم البلقاء لقيتنا جموع الروم والعرب في قرية من قرى البلقاء تدعى مشارف ، فيممنا صوب قرية مؤتة ... وهناك تمت تعبئتنا ، فتولى الميمنة رجل من بني عذرة يدعى قطبة بن قتادة ، وتولى

الميسرة رجل من اصدقائي ايام الطفولة والشباب يدعى عباية بن مالك .. وبدأ القتال المرير . وانطلق زيد بن حارثة براية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقاتل حتى شاط في رماح القوم وغرق بدمائه ، فتسلم الراية جعفر بن ابي طالب الذي لم يكن قد تجاوز الثالثة والثلاثين سنة من العمر ، وانطلق يقاتل حتى اذا احاط به العدو من كل مكان وسددوا اليه ضرباتهم ، اقتحم عن فرسه الشقراء وضرب قوائمها بالسيف وراح يجالد القوم وهو ينشد :

يا حبذا الجنة واقترابها … طيبة وباردا شرابها

والروم روم قددنا عذابها … كافرة بعيدة انسابها

علي اذ لاقيتها ضرابها

كان جعفر يحمل الراية بيمينه فلما قطعوها اخذها بشماله ، فلما قطعوها احتضنها بعضديه ، حتى قتلته ضربة جندي رومي قطعته نصفين ... فانقضّ عبد الله بن رواحة وحمل الراية وتقدم بها على فرسه .. وفي موجة من الرعب الذي لا يرحم منبثقا هذه المرة ايضا عن حساسية الشاعر وتأرجحه العاطفي، تردد عبد الله بعض التردد الا انه ما لبث ان تفوق على خوفه وتردده ونزل عن فرسه لكي يشتبك باعداء الله وهو ينشد :

اقسمت يا نفس لتنزلنه … لتنزلنه او لتكرهنه

ان اجلب الناس وشدوا الرنه … مالي اراك تكرهين الجنه؟

يا نفس .. الا تقتلي تموتي … هذا حمام الموت قد صليت

وما تمنيت فقد اعطيت … ان تفعلي فعلهما هديت

واتاه ابن عم له بقطعة لحم وقال : شد بها صلبك ، فانك قد لقيت في يومك هذا ما لقيت !! فاخذها منه واقتطع منها مضغة لكنه ما لبث ان سمع احتدام القتال قريبا منه ... وسمعته يخاطب نفسه: وانت في الدنيا ؟ ورايته جيدا وهو يلقي قطعة اللحم من يده ثم ياخذ سيفه ويتقدم فيقاتل حتى يقتل .

ان الدمع ليحجب عنيّ الرؤية فلا اقدر على مواصلة الكتابة... وان النشيج المكبوت في الاعماق ليهز اعصابي فلا تستطيع اصابعي ان تمسك بالريشة لكي تواصل تدوين هذه المذكرات..

وستظل مطبوعة في ذاكرتي الى الابد صورة ابن رواحة والعرق الغزير يتصبب من جبهته العريضة .. والجوع يكاد ان يحيله الى خيط رفيع .. وهو يمسك بقطعة اللحم ويتردد في التهامها ثم يرمي بها الى الارض ويستبدلها بالسيف لكي ما يلبث ، في لحظات ، ان يغدو، هو، مضغة تلوكها سيوف القوم !!

رحمك الله ياعبد الله .. يا اخي وياصديقي .. كنت تعرف جيدا كم يطربني شعرك فكنت تطرق علي الباب في الامسيات لكي تسمعني اخر ما جادت به قريحتك .. وتطلب مني طعامك المفضل : بلح خيبر الذي كان يأتيني به بعض اصدقائي التجار من هناك..

وها انت اليوم اشعث اغبر مطروحا في قلب الصحراء .. ولكن لا بأس يا عبد الله ، فان برد النعيم يقيك الان لفح الحر ... وظل الله الحبيب يحجب عنك همّ الدنيا ونصبها .. وبلح الجنة قريب منك .. فكل يا عبد الله ... كل .. فهو الذ واشهى ..

وستعرف جيدا.. هناك.. لم كانت نفسك اللوامة تلوم نفسك الخائفة المترددة وتخاطبها:

ان اجلب الناس وشدوا الرنه   مالي اراك تكرهين الجنه؟

وستجد هناك امنيتك الغالية التي طالما تمنيتها وتمناها اخواك الشهيدان اللذان سبقاك على الطريق : زيد ..وجعفر !!

ومـــا تمنيـــت فقـــد اعطيـــت ان تفعلـــي فعلـــهما هـــديت

لك الله يا اخي عبد الله ... لقد فعلت فعلهما فهديت الطريق ... ولكن من منا يستطيع ان يفعل فعلهما وفعلك ... من ؟

(١٧)

بعد استشهاد قائدنا الثالث : عبد الله بن رواحة ، اخذ الراية رجل من اصحابنا يدعى ثابت بن اقرم ونادى : يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم. صرخنا جميعا : انت .. قال : ما انا بفاعل ... فتشاورنا واتفقنا على تسليم القيادة لخالد بن الوليد...

وفي قلب الفجيعة واحتدام القتال ، كنا نحن المسلمين تلامذة الرسول عليه افضل الصلاة والسلام ، ننفذ قيما ونصنع اخرى ... ثابت بن اقرم وهو يرفض القيادة ، لا خوفا او جبنا ، ولكن ادراكا لقدراته وطلبا للأكفأ والاحسن .. وجند الله وهم يتشاورون لاختيار قائدهم الجديد بعد فجيعتهم برؤسائهم الثلاثة.

ولقد كان خالد عند حسن ظننا جميعا .. التمعت عبقريته القتالية في لحظة الامتحان الخطير هذه ، فجعل هدفه ان ينسحب بنا وان يجنبنا عملية ابادة شاملة هي الان قاب قوسين او ادنى ....وماذا بعد ضياع زهرة قواتنا وتبعثر جثث ثلاثة الاف مقاتل في الصحراء بعيدا عن رسولهم واهليهم ؟

سيقول الامبراطور : ان اندفاعا حماسيا من جزيرة العرب قد سحق ، وعلى اعراب الجنوب الا يفكروا مرة اخرى بمصارعة سيدة العالم المنتصرة على الفرس ، وسيقول اتباعه من العرب ان كلمة سيدنا هي الكلمة ، وان تبعيتنا وطاعتنا في مكانها تماما ، لن يحرفها نداء رجل جاء يدعونا الى عبادة الله وحده وترك عبادة العباد! وسترفع الوثنية واليهودية والمنافقون رؤوسها ثانية في قلب الجزيرة ، في محاولة لاسترداد مواقعها القديمة التي ازاحها عنها الاسلام...

ولقد بدأ خالد بن الوليد تحقيق هدفه هذا بان رسم خطة سعى من خلالها الى ايهام العدو اننا لازلنا نقاتل في اماكننا ، فدفع بالمقدمة الى مناوشة العدو واجرى تغييرات في مواقع الجند بين ميمنة وميسرة ومقدمة ومؤخرة ، وارسل خلف الجيش

عددا من الرجال والخيول يحدثون جلبة شديدة ويثيرون النقع ليوهم العدو ان مددا قد جاءه.

وما ان حل الظلام حتى انسحب بنا من الميدان واخذ طريقه جنوبا ، منقذا جيش الاسلام من فناء محقق ، دون يعطي من الخسائر سوى بضعة عشر رجلا ، بينما كانت خسائر العدو اضعافا مضاعفة ، الامر الذي اثر في معنويات العدو وصده عن مطاردتنا.

ابتعدنا عن ميدان القتال قبل ان تصلنا النجدة التي كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد استنفرها لدى سماعه انباء القتال ، ووصلنا المدينة بعد مسيرة مجهدة في جحيم الصحراء ... وتلقانا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) واخواننا المسلمون ، وكان الصبيان يعدون من ورائهم وهم يهتفون : يا فرّار .. افررتم في سبيل الله ؟ فيجيبهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) : ليسوا بالفرار ولكنهم الكرّار ان شاء الله تعالى ..

وقلت في نفسي : لا بأس .. فان امة يستنكر فيها الهزيمة حتى اطفالها الصغار الذين لم يعتادوا عودة كبارهم مقهورين ، لابد ان يجول كبارها جولات وجولات حتى تتحقق الكلمة التي احملوها الى العالم !.

ولم يمض شهر واحد على معركة مؤتة حتى بلغ الرسول (صلى الله عليه وسلم) ان جمعا من قضاعة ، القاطنين في الشمال والموالين للروم ، قد تجمعوا يريدون القيام بهجوم على اطراف الدولة الاسلامية . فدعا عمرو بن العاص ووجهه على راس ثلاثمائة من ابطال المهاجرين والانصار، وامره ان يستعين بمن يمر بهم من قبائل بلى وعذرة وبلقين ، الموالية للمسلمين...

كم كنت اتمنى ان اكون معهم .. على الاقل لكي اشبع في نفسي حاجة للثأر من اولئك الذين اعانوا الروم على قتل شهدائنا الثلاثة .. ولكني كنت مرهقا

مكدودا ... وكانت معركة مؤتة قد استنزفت مني الكثير ... ولكن ما استنزفني اكثر هو حزني العميق على اخي وصديقي عبد الله بن رواحة ورفيقيه زيد ... وجعفر..

ومع ذلك .. هممت ، ونحن نجتمع بالرسول عليه السلام في مسجد المدينة ، ان احدثه بما يعتمل في نفسي .. ولكني عدلت عن رأيي في اخر لحظة .. ان خروجي مع عمرو بن العاص لن يجدي شيئا ، ذلك اني احس باعياء شديد .. ولن يكون بمقدور ذراعي ان تتفنّن في قطف رؤوس الاعداء كما كانت تفعل في الماضي ... اين ايام بدر .. وأحد ... والخندق؟؟ اين؟

وامنّي نفسي بانني ساسترجع طاقتي الضائعة في يوم قريب ، وسوف اعرف يومها كيف يكون الحساب عسيرا مع اعداء الله ... ان امامنا جميعا امنيتنا الكبيرة ...مكة .. وان علينا ان ندخر الجهد لليوم الموعود..

حدثني صديقي مجاشع بن عوف الذي اشترك في حملة ابن العاص قال : انطلق عمرو بنا يسير ليلا ويكمن نهارا ، فلما اقتربنا من القوم بلغه ان لديهم جمعا كبيرا ، فبعث الى الرسول (صلى الله عليه وسلم) يطلب منه مددا ، فاسرع الرسول (صلى الله عليه وسلم) بارسال ابي عبيدة بن الجراح على رأس مائتي مقاتل من كبار المهاجرين والانصار ، فيهم ابو بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، وامره ان يلحق بابن العاص وان يعملا سوية لانجاز المهمة التي كلفا بها ... وانطلقنا بعد ان وصلنا المدد ، حتى وطئنا بلاد بلى ودوّخناها ، وفعلنا بعذرة وبلقين ما فعلناه بالاولى ، ولقينا في نهاية زحفنا جمعا فحملنا عليهم فهربوا بين ايدينا وتفرقوا في البلاد ، بعد ان قتلنا منهم عددا كبيرا ، ثم قفلنا عائدين بعد ان غطت انتصاراتنا هذه في اقصى الشمال على مأساة مؤتة ، وبعد ان مكنا للدعوة هناك ، واشعرنا العرب الموالين للبيزنطيين بان هزيمة المسلمين في معركة ما لا تعني ابدا انحسار دولتهم في اراضي الشمال..

قلت وانا اتنفس الصعداء : الحمد لله .. هذا شيء من الثأر لقادتنا الثلاثة ، ولكنه ليس كل شيء ، فان بيننا وبينهم حسابا لا يعلمه الا الله ورسوله ..

قال : دعك من هذا الان .. فان هناك ما هو اكثر الحاحا .. قريش !!

تساءلت دهشا : ما بها ؟

قال : لقد اخذت تزداد يقينا يوما بعد يوم بان شروط صلح الحديبية لم تكن في صالحها ، وانها اذا ما ظلت ملتزمة بها فسوف تجد نفسها في يوم قريب أو بعيد وحيدة عزلاء وسط بحر اسلامي تضرب امواجه حدود امبراطوريتي العالم القديم ، وتكتسح مواقع الوثنية البائدة ، وحتى الشرط الذي ظنته قريش لصالحها وظنناه نحن اذلالا لنا ، ذلك الذي يعطيها الحق في استرداد من يلحق بنا ويحجب هذا الحق عنا ، حتى هذا الشرط اخذ يلحق بمشركي مكة متاعب صارت تزداد مع الايام ، فالمضطهدون الهاربون من قبضة قريش كانوا يجدون انفسهم ملزمين بعدم الالتحاق باخوانهم ودولتهم الجديدة في المدينة ، والا ردوا الى مضطهديهم تنفيذا للعهد ، فكانوا يلجأون الى جبال تهامة المطلة على طريق القوافل المكية الى الشام ويقومون من هناك بشن هجماتهم ضد القوافل القرشية الذاهبة والاتية من الشام ، فيقتلون حراسها واصحابها ، ويغنمون اموالها .. الم تسمع بابي بصير؟

قلت وانا احاول ان اتذكر : اليس ذلك الذي رده الرسول عليه السلام الى قريش يوم الحديبية ؟

قال : بلى .. ولكنه ما لبث ان فر من مضطهديه في مكة الى المدينة ..

قلت : ولا زلت اذكر كذلك كيف رده الرسول (صلى الله عليه وسلم) ثانية التزاما بالعهد . قال : لكنه تمكن مرة أخرى من الفرار بعد ان قتل احد الحارسين اللذين جاءا من مكة لاسترداده ، واضطر الاخر على الفرار .. ثم انطلق صوب جبال تهامة لكي يتزعم المضطهدين الهاربين ويبدأ بهم هجماته ضد القوافل القرشية .. واخذ يلتحق به هناك كل هارب من جحيم الوثنية .. وقبل ايام فحسب بعثت قريش الى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تطلب الغاء ذلك الشرط ... فاجابها الى ما ارادت ..

قلت وانا اودعه شادا على يديه : من يدري فلعلها بداية الطريق ..الى مكة!! .

(١٨)

الايام تمر وقريش زعيمة الوثنية ، تزداد - بفضل الحديبية- عزلة وتوترا وتجارتها بوارا وكسادا .. ونحن .. نزداد نشاطا ودأبا ... ومن ثم راح رجالات مكة ينتظرون الفرصة لضرب المعاهدة وابطال شروطها جميعا لان ثماني سنوات اخرى من الصلح ستؤدي حتما الى اختناق قريش .

وما لبثت الاحداث ان مكنتها من تحقيق هدفها ، الا انها لم تكن تدري يومها انها تسعى الى حفر قبرها بيديها وانها تضع بيد الرسول (صلى الله عليه وسلم) المعول الذي سيهدم به الهتها واصنامها ، وسيهيل التراب على قيمها الخاطئة وتقاليدها الظالمة وعقائدها الوثنية البائدة.

ذلك ان بني بكر حليفة قريش ، اعتدت في شعبان من هذا العام (الثامن للهجرة) على خزاعة حليفة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وداهمتها في ديارها فقتلت احد رجالها ، ففزعت خزاعة تدافع عن نفسها ، واتسع نطاق القتال وراحت قريش ترفد حليفتها بالسلاح وبالرجال يقاتلون تحت جناح الليل حتى الجأوا خزاعة الى الحرم وقتلوا منها ثلاثا وعشرين رجلا . فنادت بنو بكر زعيمها نوفل بن معاوية : انا قد دخلنا الحرم ...الهك .. الهك .. فاجاب نوفل : لا اله اليوم يا بني بكر ، اصيبوا ثأركم ، فلعمري انكم لتسرقون في الحرم افلا تصيبون ثاركم فيه؟

ورأت خزاعة ان قريشا قد نقضت عهدها مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) اذ اعانت على قتالها وهي حليفة المسلمين . فبعثت زعيمها عمرو بن سالم الخزاعي في اربعين راكبا يعرض على الرسول (صلى الله عليه وسلم) تفاصيل العدوان ويستنجده على الغادرين ، واعقبه بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة يؤكد ما ذهب اليه عمرو بن سالم ...

ولم يزد الرسول (صلى الله عليه وسلم) على ان قال لنا ونحن نتحلق حوله : (كانكم بابي سفيان قد جاء يشد العقد ويزيد المدة)!! وكانه (صلى الله عليه وسلم)

اعتزم امرا لم يشأ ان يكشفه لرسل خزاعة او لاصحابه حرصا على السرية والكتمان...

ولقد صدق الرسول (صلى الله عليه وسلم) اذ ما لبثت قريش ان ادركت خطأها وانها ليست بقادرة اليوم على مجابهة غضبتنا ، وقد ازددنا قوة وعددا ، فرأت ان تبعث زعيمها ابا سفيان الى المدينة على جناح السرعة عله يعيد الامور الى مجاريها ويجدد معنا بنود معاهدة كان وهو ورفاقه قد قتلوها.

التقى ابو سفيانٌ بالرسول (صلى الله عليه وسلم) وكلمه في الامر فلم يرد عليه ، فذهب الى ابي بكر فتوسط لديه ان يكلم له الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال : ما انا بفاعل . فاتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال عمر: انا اشفع لكم عند رسول الله ؟ فو الله لو لم اجد الا الذر لجاهدتكم به . فجاء الى علي وقال : يا علي انك امس القوم بي رحما واني قد جئتك في حاجة فلا ارجعن كما جئت خائبا ، فأشفع لي الى رسول الله ، فأجابه علي : ويحك يا ابا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على امر ما نستطيع ان نكلمه فيه .. ولم يكن هذا الامر سوى الاعداد الحاسم لاستئصال رأس الوثنية واكتساحها ..

وعاد ابو سفيان خائبا لكي يخبر قريشا بفشل مسعاه !!

حرص الرسول (صلى الله عليه وسلم) خلال التجهز على كتمان الامر حتى عن اقرب اصحابه اليه من اجل ان يفاجىء مكة بهجومه الحاسم فلا تستطيع مقاومة ودفاعا ، فتذعن للامر وتحقن الدماء. حتى ان زوجته عائشة عندما سألها ابوها : اين ترينه يريد ؟ اجابت : لا والله ما ادري!!

وما ان تم الاعداد والتجهز حتى انطلق الرسول (صلى الله عليه وسلم) بنا على طريق مكة وامرنا بالجد والتهيؤ.. ولم يكن احد منا يعلم وجهته على التحديد ، فقائل يقول يريد قريشا وقائل يقول هوازن وآخر يقول يريد ثقيفا .. ولم يعقد الالوية ، ولم ينشر الرايات حتى بلغ كديد .. وعندما سأله احد اصحابنا في الطريق: يا رسول

الله والله ماارى آلة الحرب ولا تهيئة الاحرام فأين تتوجه يا رسول الله ؟ اجاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) . حيث شاء الله !!

وقد زاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) اجراءاته الاحتياطية قبيل التحرك فأمر باقفال طرق المدينة وعّمى الاخبار على قريش وغيرها من العرب ، فكان عمر بن الخطاب يطوف على نقباء الطرق يقول : لا تدعوا احدا يمر بكم تنكرونه الا رددتموه، الا من سلك الى مكة فإنه يتحفظ به ويسأل عنه . وعندما الح ابو بكر بسؤاله : اين تريد يا رسول الله ؟ اجاب الرسول : قريشا.. واخف ذلك يا ابكر .. ودعا الرسول (صلى الله عليه وسلم) ربه : (اللهم خذ العيون والاخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها) !!

واستجاب الله لدعاء رسوله ، واعلمه وحيه الامين ان محاولة لاخبار قريش بتحرك الرسول (صلى الله عليه وسلم) قام بها حاطب بن ابي بلتعة ، حيث كتب الى قريش بهدف الرسول (صلى الله عليه وسلم) كتابا حمله امرأة اخفته في طيات شعرها ، وانطلقت صوب مكة فادركها علي والزبير في منتصف الطريق واخذا الكتاب منها وقفلا عائدين ليسلماه للرسول ، فدعا الرسول (صلى الله عليه وسلم) حاطبا وسأله : ما حملك على هذا ؟ فأجاب : اما والله اني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيرت ولا بدلت، ولكني كنت امرءا ليس لي في القوم من اهل ولا عشيرة، وكان لي بين اظهرهم ولد واهل فصانعتهم عليه.

وسمعت عمر بن الخطاب يقول : يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه فإن الرجل قد نافق .. فيجيبه الرسول عليه السلام : وما يدريك يا عمر ؟ لعل الله أطلع الى اصحاب بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم .

حقا .. ان ماضي حاطب في الجهاد في سبيل الدعوة واسهامه مع اخوانه في محاربة الوثنية وهي في اوج عنفوانها ، يحجب عنه الآن الزلة الكبيرة التي ساقته قدماه

اليها .. والماضي الكبير يحجب الخطأ الكبير مادام الايمان لم ينقلب بعد الى كفر صريح ..

ونزلت كلمات الله لكي تحدد لنا ، انطلاقا من هذه المناسبة العابرة ، موقفا دائما ، علينا الا ننحرف عنه ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ❖ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ❖ لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

انطلق الرسول (صلى الله عليه وسلم) بنا في العاشر من رمضان ، مستخلفا على المدينة (أبا رُهم الانصاري) ومستنفرا كل قادر على القتال من المسلمين . وعندما بلغنا مر الظهران عسكرنا هناك في عشرة الآف مقاتل من بني سليم وبني غفار وبني مزينة وتميم وقيس واسد التي دعاها لموافاته في المدينة ، ولم يتخلف من المهاجرين والانصار احد .. وكيف وهم يتحرّقون شوقا لتحقيق حلمهم الكبير ؟

ولم تكن قريش ، وقد عميت الاخبار عنها ، تعرف حتى ذلك الحين شيئا عما يفعله الرسول (صلى الله عليه وسلم) أيريد قريشا ام هوازن ام ثقيفا ؟ وعندما عسكرنا في مر الظهران لم يكن قد بلغ قريشا حرف واحد من مسير رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اليهم .. ولكن المخاوف اخذت تتناوشهم من احتمال الغزو القريب ..

كان العباس عم الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد التحق بمعسكرنا وجعل هدفه ان تقتنع قريش بعدم جدوى المقاومة ، وان يجيىء زعماؤها فيستأمنوا الرسول

قبل وقوع المحذور ، فخرج يبحث عن رجل يذهب الى مكة ليخبر اهلها بمكان معسكرنا لكي يجيئوا فيعتذروا ويستأمنوا .

لقد امتلكنا زمام المبادرة تماما بفضل سياسة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وخططه الدقيقة .. وان مكة.. حلمنا القديم .. وحلم اخواننا المهاجرين .. قد اصبحت قاب قوسين او ادنى .. وسواء استسلم القريشيون ام رفعوا في وجوهنا السلاح .. فإن نصر الله آتٍ لا ريب فيه .. وان وعده الحق .. سبحانه !!

(١٩)

خرج ابو سفيان وبديل بن ورقاء ، فيمن خرج من زعماء قريش ، يتحسّسان الاخبار فيفاجآن بالمعسكر الكبير الممتد على مدى البصر .. ويقول ابو سفيان : ما رأيت نيرانا قط ولا عسكرا بهذا الشكل !! فيجيبه بديل : هذه والله خزاعة قد حمشتها الحرب ، فيرد ابو سفيان: خزاعة اذل واقل من ان تكون هذه نيرانها وعسكرها ..

تقدم العباس اليهما واعلمهما حقيقة الخبر واردف ابا سفيان وراءه في محاولة لاستئمان الرسول (صلى الله عليه وسلم) اياه ، اما صاحبه فقد قفل عائدا. ولمحهما عمر بن الخطاب وهما يجتازان معسكراتنا فانطلق الى الرسول عليه السلام قائلا يا رسول الله هذا ابو سفيان قد امكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعني فلأضرب عنقه. الا ان العباس سرعان ما اعلن جواره له ..

وفي الصباح جيء به الى الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال له : ويحك يا ابا سفيان الم يأن لك ان تعلم انه لا اله الا الله ؟ قال : بابي انت وامي ما احلمك واكرمك واوصلك ، والله لقد ظننت ان لو كان مع الله اله غيره لقد اغنى عني شيئا بعد !!

استمر الرسول عليه السلام : ويحك يا ابا سفيان ، ألم يأن لك ان تعلم اني رسول الله؟قال : بابي انت وامي .. اما هذه والله فان في النفس منها حتى الان .. فقال له العباس : ويحك اسلم واشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله قبل ان تضرب عنقك ... عند ذاك اعلن ابو سفيان اسلامه. واراد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ان يتخذ منه مفتاح امان يفتح امامه الطريق الى مكة دون اراقة الدماء، ويكبت به روح المقاومة الوثنية المتعطشة للقتل ، فاراد ان يشبع فيه عاطفة الفخر ويحقق هدفه عن هذا الطريق ، فاعلن ان من دخل دار ابي سفيان فهو امن، ومن اغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .. وقد جعل عليه السلام لدار ابي سفيان مكانة خاصة كي يكون ساعده في اقناع المكيين بالسلم والهدوء . ولم يكتف الرسول عليه السلام

بذلك بل امرالعباس ان يحجز ابا سفيان عند مدخل المضيق الذي ستنساب منه قواتنا في طريقها الى مكة ، فيراها رأي العين فيزداد يقينا بالا قدرة للمكيين على المقاومة.

ووقف العباس وابو سفيان حيث امره الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وراحت قبائل المسلمين تمر حاملة راياتها الخاصة واحدة تلو الاخرى .. وكلما مرت قبيلة كبرت ثلاثا ، فسال ابو سفيان : يا عباس من هذه ؟ فيقول : سليم .. فيرد ابو سفيان: مالي ولسليم ؟ ثم تمر القبيلة الاخرى فيسأل : يا عباس من هؤلاء ؟ فيجيبه: مزينة .. فيقول مالي ولمزينة ؟ حتى اذا استعرضت القبائل كلها .. مر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في كتيبته الخضراء التي تضم الف دارع منا ومن اخواننا المهاجرين لا يرى منها الا الحدق خلل الحديد ، فسأل ابو سفيان : سبحان الله ، يا عباس من هؤلاء ؟ فاجابه : هذا رسول الله في المهاجرين والانصار ، فقال ابو سفيان : مالاحد بهؤلاء قبل ولا طاقة . فطلب منه العباس ان يسرع الى قومه يعلمهم بما راى وسمع ...

دخل ابو سفيان مكة وراح يصرخ باعلى صوته : يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به فمن دخل داري فهو آمن ... فانبرت له امرأته تقبح رأيه ، وقام القوم مستنكرين قائلين : قاتلك الله ، وما تغني عنا دارك ؟ فاستأنف ابو سفيان: ومن اغلق عليه بابه فهو امن ، ومن دخل المسجد فهو آمن...

وادركت الاغلبية العظمى من المكيين الا جدوى في مخالفة زعيمها ابي سفيان وهويدعوها الى الامان قبل ان تكتسحها سيوف المسلمين . فتفرقت الى دورها والى المسجد الحرام واغلقت دونها الابواب...

وزع الرسول (صلى الله عليه وسلم) قواده لكي يدخلوا كل من الجبهة التي حددت له : سعد بن عبادة وابنه يدخلان بقواتهما مكة من الجهة الشرقية ، ابو عبيدة عامر بن الجراح يتقدم بقواته بين يدي الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليدخل مكة من جهتها الغربية ، الزبيربن العوام يقود خيل المهاجرين والانصار الى اعلى مكة حيث الحجون لكي يغرز راية المسلمين هناك ، وقد كنت اعمل ضمن هذه القوات ، وخالد

بن الوليد يدخل مكة من الجنوب حيث تجمع مقاتلو قريش وحلفاؤهم واحابيشهم لمنع القوات الاسلامية من اجتياز مكة.

وامر الرسول (صلى الله عليه وسلم) قواته الا يقاتلوا الا اضطرارا ، وسمى نفرا من مكة امر بقتلهم حتى ولو تعلقوا باستار الكعبة بسبب مواقف كانت قد صدرت عنهم : ارتدادا عن الاسلام ، او قتلا للمسلمين ، او ايذاء لدعاتنا في مكة ، او هجاء قبيحا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، بلغ عددهم ثمانية..

دخلت قواتنا مكة من جهاتها الاربع بسهولة بالغة ، بعد ان هزم خالد بن الوليد القوات القرشية التي اعترضت مسيرته في الجنوب وقتل وجرح منهم بضعة عشر رجلا ، ولم يفقد من رجاله سوى اثنين كانا قد شذا عن الطريق التي سلكها..

وما ان تمت سيطرتنا على مكة في العشر الاواخر من رمضان واستقر امرنا فيها حتى خرج الرسول (صلى الله عليه وسلم) على راحلته فطاف بالبيت سبعا ، بينما كانت تكبيراتنا تشق عنان الفضاء في يوم الفرح الكبير ... ثم دعا عثمان بن طلحة فاخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها وكسر اوثانها بيده وطرحها ارضا .. ومحا صور الملائكة والانبياء ، وعندما رأى ابراهيم عليه السلام مصورا وفي يده الازلام يستقسم بها قال : قاتلهم الله ، ما شأن ابراهيم والازلام؟ **﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** ... ثم امر بتلك الصور فطمست وخرج الى الاصنام المصفوفة حول البيت ، ونحن من ورائه فراح يعمل بها تحطيما ويقول **﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾** ...

وقف الرسول (صلى الله عليه وسلم) على باب الكعبة حيث تجمع الناس وخاطبهم قائلا (لا اله الا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الاحزاب وحده ، الا كل مأثرة او دم او مال فهو تحت قدمي هاتين الا سدانة البيت وسقاية الحاج. يا معشر قريش ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالاباء . الناس من آدم وآدم من تراب **﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ**

﴿شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ .. يامعشر قريش ما ترونه اني فاعل بكم ؟) اجابوه بصوت واحد : خيرا ، اخ كريم وابن اخ كريم ! قال (اذهبوا فانتم الطلقاء!) ثم جلس الرسول (صلى الله عليه وسلم) في المسجد فقام اليه علي بن ابي طالب ومفتاح الكعبة في يده وقال : اجمع لنا الحجابة مع السقاية يا رسول الله. فقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) : اين عثمان بن طلحة ؟ فلما جيء به ، قال له : هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء ..ثم امر بلالا ان يصعد فيؤذن في الناس معلنا بشهادته انتهاء عهد الوثنية في مكة ، قلب الوثنية ، وبداية عهد جديد لا يعبد فيه غير الله ، وفق التعاليم التي جاء بها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .. العبادة التي تحرر الانسان وتباركه وتزكيه وتقوده الى الفلاح الواحد في الدنيا والاخرة ، وترفع رأسه فلا يعد ينخفض مرة اخرى لقوة في الارض بشرا كانت ام حجارة صماء..

ولم يكتف الرسول (صلى الله عليه وسلم) بابادة اصنام مكة ، وانما سعى لتطهير المنطقة كلها من دنس الوثنية فارسل خالد بن الوليد الى بطن نخلة ليهدم العزى كبير الهة المنطقة ، فانطلق خالد الى هدفه فكسر الصنم وهدم بيته وسادنه يصرخ: اعزى اغضبي بعض غضباتك... دونما جدوى!

وانطلق عمرو بن العاص لهدم سواع، وكان حجرا ، وجرى بينه وبين السادن هذا الحوار

السادن : ما تريد ؟

عمرو : هدم سواع

السادن : لا تطيق هدمه..

عمرو : انت في الباطل بعد...

وهدم الوثن فلم يجد في خزانته شيئا !! وفي الوقت نفسه كان سعد بن زيد الانصاري يهدم مناة ، الاله الذي كنا والخزرج نعبده ونطوف به ايام الجاهلية...

ومن مكة ايضا بث الرسول (صلى الله عليه وسلم) سراياه في الجهات المحيطة ، تدعو الى الاسلام وهي تحمل امرا بعدم القتال ، مستهدفا بذلك تعزيز انتصارنا على الزعامة الوثنية ، ومد الدعوة الى مناطق كانت قريش قد جعلتها حكرا على الهتها واصنامها...

(٢٠)

ولد سقوط مكة قاعدة الوثنية رد فعل عنيف لدى القبائل العربية المجاورة ، وعلى رأسها هوازن وثقيف . ورأت هذه القبائل ان تتحرك لتوجيه ضربة قاصمة للقوات الاسلامية قبل ان يستفحل الخطر وتجد هذه القبائل نفسها محاطة من كل مكان . اذ ان السكوت ازاء ما نحققه من انتصارات متلاحقة يعني فتح الطريق امامنا لتغطية الجزيرة كلها بالدين الجديد ، واكتساح مواقع الوثنية واحدة واحدة ، سيما وان (ام القرى) قد القت السلاح دونما مقاومة او قتال . هذا الى ان هذه القبائل كانت لدى سماعها بمغادرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) المدينة على رأسه جيشه ، قد تجمعت خوفا من ان يغزوها الرسول (صلى الله عليه وسلم) . وقال زعماؤها بعد فتح مكة : (قد فرغ لنا ، فلا ناحية له دوننا ، والرأي ان نغزوه)..

وتولت هوازن كبر المحاولة حيث جمعها زعيمها مالك بن عوف النصري، وانضمت اليها ثقيف كلها ، ولحق بهما بعد قليل قبائل نمير وجشم وسعد بن بكر وعدد من ابناء بني هلال وبني مالك ، واتفق قادتهم على ان يسلموا بزعامة مالك بن عوف ، فرأى هذا ان يسير مع المقاتلين ، نساءهم واطفالهم واموالهم ، كي يستميتوا في القتال ... وعندما عسكر في اوطاس ، احد وديان هوازن ، اعترض دريد بن الصمة الجشمي على رأي مالك في جلب النساء والاطفال والاموال ، وسأله : لم ذاك ؟ فأجاب مالك : اردت ان اجعل خلف كل رجل منهم اهله وماله ليقاتل عنهم ، فقال دريد وهو شيخ كبير مجرب : راعي ضأن والله !! وهل يرد المنهزم شيء ؟ انها ان كانت لك لم ينفعك الا رجل بسيفه ورمحه ، وان كانت عليك فضحت في اهلك ومالك ..

فرفض مالك الاخذ برأيه ، انفة واستعلاءا ، ونادى قومه : اذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم ثم شدوا شدة رجل واحد ..

عندما سمع النبي (صلى الله عليه وسلم) نبأ هذا التحرك الوثني ، بعث احد اصحابه مستخبرا ، وامره ان يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه

بخبرهم . فتسلل الرجل الى مواقع العدو وعاد ليخبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بما اجمع عليه هؤلاء من قتالنا . فانطلق الرسول عليه السلام في مطلع شوال على رأس اثني عشر الف مقاتل كان ضمنهم الفان من المكيين اسلموا بعد الفتح.

وسرعان ما وجدنا انفسنا مضطرين الى اجتياز واد من اودية تهامة ، شديد الانحدار يدعى (حنينا) ، في طريقنا لمجابهة العدو . ولم يكن الصبح قد طلع بعد ، وكان المشركون قد سبقونا الى الوادي فكمنوا لنا في شعابه ومضايقه ، وتهيّأوا للانقضاض علينا في جو يسوده المطر والضباب ... وما ان دخلنا الوادي حتى انقضّ علينا اعداؤنا دفعة واحدة من حيث لم نكن نتوقع ، فأصابنا الاضطراب لهول المفاجأة وكر معظمنا راجعين لا يلوي احد على احد..

انحاز الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذات اليمين ونادى (ايها الناس هلموا الي، انا رسول الله ، محمد بن عبد الله) ، ثم تقدم بحربته امام المقاتلين ، وكنا ، عشرات من المهاجرين والانصار نقف الى جواره صامدين.

وقال للعباس ذي الصوت الجهوري (يا عباس اصرخ : يا معشر الانصار....) وسرعان ما انطلقت النداءات من بعيد : لبيك ... لبيك .. وكان الرجل من اصحابنا اذا ما اراد ثني بعيره والانطلاق ثانية الى قلب المعركة لا يقدر على ذلك ، لشدة التدافع والزحام وضغط المتراجعين ... فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ، ويحمل سيفه وترسه، وينزل عن بعيره مخليا سبيلها ، ومنطلقا صوب النداء . حتى اذا اجتمع الينا عدد من المقاتلين استقبلنا العدو بقيادة رسولنا عليه السلام واقتتلنا معه قتالا مريرا . ونادى الرسول : الان حمي الوطيس ! فزادنا حمية واندفاعا .. وتمكن علي ورجل من الانصار من قتل حامل راية هوازن .. وبدأت الكفة ترجح لصالحنا .. ثم ما لبث المشركون ان اخذوا بالتراجع صوب الوراء وانقضضنا عليهم نعمل فيهم قتلا واسرا .. وما ان عاد الى الميدان اولئك الذين تراجعوا الى الخلف من جندنا حتى وجدوا اسرى المشركين مكتفين بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

تراجع المشركون بقيادة مالك بن عوف صوب الطائف ، وعسكر بعضهم في اوطاس وتوجهت فئة ثالثة نحو نخلة ، ولم يتح لهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) فرصة يستردون فيها قواهم ويعيدون تنظيم انفسهم ، فارسل قوة من الفرسان لمطاردة اولئك الذين توجهوا نحو نخلة ، وقوة ثانية بقيادة ابي عامر الاشعري كلفت بقتال المشركين في اوطاس ، فاصابوه بسهم ، اودى بحياته ، فاخذ الراية ابن عمه ابو موسى الاشعري وقاتلهم حتى فتح الله عليه وتمكن من هزيمتهم..

وبعد ان امر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بحبس سبايا معركة حنين واموالها الكثيرة في مكان يدعى (الجعرانة) مجمدا التصرف بها ، انطلق صوب الطائف حيث اعتصم المنهزمون بحصونها المنيعة واعدوا العدة للقتال . ونزل قريبا منها حيث عسكر بنا هناك وجرت مناوشات بيننا وبين المشركين ذهب ضحيتها عدد من اصحابنا بنبال العدو ، الامر الذي دفع الرسول عليه السلام الى ابعاد معسكرنا عن مدى النبال التي كانت تنطلق من حصون ثقيف . وظل يحاصرهم بضعا وعشرين ليلة قدمت خلالها وفود المناطق المجاورة معلنة اسلامها..

واستمر القتال ، عنيفا حينا ومتقطعا احيانا ، استعملنا فيه الات الحصار لاول مرة كالمنجنيق والدبابة ، وقد تمكنت قوة من اصحابنا من الزحف بالدبابة الى جدار الطائف وبدأوا بخرقه لولا ان ارسلت عليها ثقفيف قطعا من حديد محمية بالنار اضطرتهم الى الانسحاب بعد ان سقط عدد منهم.

وردا على المقاومة العنيفة التي ابداها المشركون ، امر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بتقطيع كروم ثقيف المنتشرة في البساتين المجاورة لارغامهم على التسليم .. وتسلل الى معسكرنا من الطائف ، آنذاك ، نفر من عبيدها اعلنوا اسلامهم فاعتقهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) ..

لم ير الرسول (صلى الله عليه وسلم) ضرورة للاستمرار في الحصار ، وادرك ان الطائف ستجد نفسها في يوم قريب اشبه بجزيرة منقطعة يحيط بها بحر طام من

كل مكان ، وستسعى اليه حينذاك طالبة الانتماء الى الدين الجديد ، رغبة وايمانا لا حقدا وخوفا ... وبدلا من ان تكون هذه المدينة ذات الطاقات البشرية المعروفة ، على المسلمين في مستقبل الايام ، فانها ستكون لهم .. لذلك لم يشأ الرسول (صلى الله عليه وسلم) ان يفتتحها عنوة ، ولم يامر بهجوم حاسم عليها ، كما حدث في العام الماضي مع حصون خيبر ، واكتفى بان يدير القتال على اضيق نطاق ، بحيث ان جميع من استشهد من رجالنا خلال الحصار لم يتجاوزوا اثني عشر رجلا . ومن ثم امر ان يؤذن في الناس بالرحيل ، فقفلنا عائدين الى (الجعرانة) حيث جمعت السبايا والغنائم الكثيرة في اعقاب معركة حنين : اربع وعشرون الف بعير ، واربعون الف شاة ، واربعة الاف اوقية من الفضة ، وعدة الاف من السبي. ولم يسرع الرسول (صلى الله عليه وسلم) في توزيعها املا في ان يعود قادة هوازن ، معلنين اسلامهم ، فيرد عليهم سبيهم واموالهم ، ولكنهم لم يجيئوا الا بعد انتظار طويل وزعت خلاله المغانم . وفي الجعرانة التقوا بالرسول (صلى الله عليه وسلم) وقالوا له : يا رسول الله انا اهل وعشيرة ، وقد اصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فامنن علينا من الله عليك . فسألهم الرسول عليه السلام: أأبناؤكم ونساؤكم احب اليكم ، ام اموالكم ؟ فاجابوه : نساؤنا وابناؤنا ، فردهم اليهم عن طيب خاطر منا جميعا ، وسألهم ان يخبروا زعيمهم مالك بن عوف الذي كان قد احتمى بالطائف انه ان جاء مسلما رد عليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) اهله وماله . فاستجاب مالك لدعوة الرسول عليه السلام وتسلّل من الطائف حيث قدم عليه معلنا اسلامه ، فرد عليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) اهله وماله واستعمله على من اسلم من قومه والقبائل المجاورة . فاخذ مالك يهاجم ثقيفا بمسلمي قومه ، ويعترض قطعانهم وقوافلهم حتى ضيق الخناق عليهم ..

وبذلك حقق الرسول (صلى الله عليه وسلم) هدفين اثنين بسياسته المرنة هذه، اولهما كسب قبيلة هوازن ذات الشوكة، وحلفائها الى معسكر المسلمين ، وثانيهما اتخاذها رأس حربة يضرب بها بقايا القوى الوثنية في المنطقة...

(٢١)

قفلنا عائدين من الطائف الى الجعرانة حيث كانت تنتظرنا الغنائم الوفيرة التي تم وضع اليد عليها في اعقاب هزيمة هوازن في معركة حنين ، والتي كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد احتجزها هناك ريثما يصفي حسابه مع الطائف.

كان هناك اكوام من الذهب والفضة ، والاف مؤلفة من الغنم والجمال .. وراح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوزعها بسخاء على اولئك الذين اسلموا حديثا من البدو والطلقاء من اجل ان يتالف قلوبهم ... اما نحن معشر الانصار فلم يعطنا منها درهما واحدا ..

وتدافع اليه الاعراب وهم يتصايحون : اعطنا يا محمد ... كل يريد ان يحظى باكبر قدر من المال .. وازدحموا عليه حتى الجأوه الى جذع شجرة اختطفت عنه رادءه .. فنادى : " ردوا علي ردائي ايها الناس ، فو الله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعما لقسمته عليكم ، ثم ما الفيتموني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا " .

ولمحته وهو يتقدم الى بعير قريب منه فيستل منه وبرة جعلها بين اصبعيه ، ثم رفعها وهو يقول: "ايها الناس، والله مالي من فيئكم ولا هذه الوبرة، الا الخمس، والخمس مردود عليكم"!!

الحق.. اننا عندما رأينا الغنائم تحجب عنا وتنصب في ايدي قريش وقبائل المنطقة ، وجدنا في انفسنا وتناوشتنا الظنون... ورحنا نتهامس بها ، وقال احدنا : لقي والله رسول الله قومه!!

ولم يشا زعيمنا (سعد بن عبادة) الا ان يصارح الرسول (صلى الله عليه وسلم) بما يدور بيننا ، فساله الرسول (صلى الله عليه وسلم) : فاين انت من ذاك يا سعد ؟ اجاب : يا رسول الله ما انا الا من قومي .فقال له الرسول (صلى الله عليه وسلم) : فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة.

لن انس ما حييت تلك اللحظات المؤثرة ، المشحونة ، ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقف فينا خطيبا ، مناديا ايانا بصوته العميق ، الهادىء ، الوقور، بعد ان حمد الله سبحانه واثنى عليه : "يا معشر الانصار ، ما قالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها علي في انفسكم ؟ الم اتكم ضلالا فهداكم الله ؟ وعالة فاغناكم الله؟ واعداء فالف الله بين قلوبكم ؟"

اجبنا بصوت واحد" بلى ، والله ورسوله امن وافضل" ...

قال : " الا تجيبوني يا معشر الانصار ؟"

قلنا : "بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل " ..

قال : "اما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم .. اتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فاويناك ، وعائلا فآسيناك...

" اوجدتم يا معشر الانصار في انفسكم ، في لعاعة من الدنيا تالفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم ؟ الا ترضون يا معشر الانصار ان يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرءا من الانصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الانصار شعبا لسلكت شعب الانصار ! اللهم ارحم الانصار وابناء الانصار وابناء ابناء الانصار"...

اطلقنا لدموعنا العنان وهو يردد دعاءه المؤثر الحزين .. حتى اخضلت لحانا ونحن نقول : "رضينا برسول الله قسما وحظا" .

وانصرف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فتفرقنا وقد ادركنا جيدا البعد الحقيقي للدرس الذي منحنا اياه نبينا ومعلمنا...

ان هذه الكتلة النقية في تاريخ الدعوة يجب ان تظل على نقائها ، تعطي ولا تأخذ ،تقدم ولا تؤخر ، لان الذي قادها الى الايمان ، ودفعها مجاهدة في طريقه اللاحب الطويل ، شيء اخر غير اهتمامات الذهب والفضة والانعام ... انه النور العميق

الذي انقدح في اعماقها يوم بايعت الرسول عليه افضل الصلاة والسلام ... واما الكتل الجديدة في تاريخ الدعوة ، فان اسلوب التعامل معها وكسبها ، وكف اذاها ، غير اسلوب التعامل مع جماعة كالانصار اثر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ان يبقى معها دوما : حيا وميتا ...

والحق ان ثمة وساوس اخرى تناوشتنا ونحن نراه (صلى الله عليه وسلم) يعطي المكيين ومن جاورهم كل شيء ولا يمنحنا شيئا ... وقلنا في انفسنا : لعله (صلى الله عليه وسلم) يريد البقاء في مكة ... في موطنه القديم ، بين اهله وعشيرته...

وما لبثت الوساوس ان تحولت الى همس ، والهمس الى كلام صامت تفصح به لغة العيون .. وادرك (صلى الله عليه وسلم) بحسه المرهف وحدسه العميق ما الذي يعتلج في طوايانا فبادرنا بالقول:"معاذ الله ... المحيا محياكم والممات مماتكم"!

ولقد كنت وفيا معنا – والله – يا رسول الله .. وظللت بين ظهرانينا حتى انتقلت الى الرفيق الاعلى ، حيث لا يزال قبرك الشريف ، وسيظل شاهدا ابديا على الوفاء الفريد...

ويكفينا فخرا ومجدا ، معشر الانصار ، اننا كسبناك حيا وميتا فيما هو اغلى واثمن – بما لا يقاس على الاطلاق – بزخرف الدنيا كلها وذهبها وكنوزها ... صلى الله تعالى عليك...

ما لبث الرسول (صلى الله عليه وسلم) ان قفل بنا عائدا الى مكة في ذي القعدة من ذلك العام ، لكي نؤدي مناسك العمرة هناك...

كنت الحظ اخواني يتنفسون الصعداء وهم ييمّمون وجوههم شطر الكعبة لكي يبدأوا الطواف . كانت وجوههم ونفوسهم تفيض طمأنينة وسعادة ورضا ... ها نحن لاول مرة نطوف ونسعى وقد عاد البيت الحرام الينا بعد ان اسرته الوثنية ردحا طويلا ..

وها هم احفاد ابراهيم ابي الانبياء (عليهم السلام) يعدلون الوقفة الجانحة ويعيدون الامور الى نصابها الحق فيرجع بيت الله الحرام الى وظيفته التي اقيم من اجلها : عبادة الله وحده ولا شيء سواه ..

كانت اصواتنا تتعالى فتشق اجواز الفضاء .. مهيبة ... جليلة ... مدوّمة في الفضاء الكوني الكبير ... منادية الله سبحانه في علاه .. ممحضة اياه جل جلاله الطاعة والمحبة والشكر والولاء : "لبيك اللهم لبيك ... لبيك لا شريك لك لبيك ... ان الحمد والنعمة لك والملك.. لا شريك لك"...

ذرفنا بغزارة دموع الفرح والحزن معا ... الفرج لعودة بيت الله الحرام الينا .. والحزن لكل اولئك الاخوة من اصحابنا المجاهدين رضي الله عنهم ، اولئك الذين قدموا اغلى ما يملكون من اجل هذه اللحظة الفريدة في تاريخ الرسالة المجيد...

في اليوم التالي عين رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (عتاب بن اسيد) اميراً على مكة ، و(معاذ بن جبل) لتفقيه الناس هناك بالدين وتعليمهم القرآن..

لازلت اذكر كيف انه (صلى الله عليه وسلم) منح امير مكة اجرا يوميا مقداره درهم واحد ، وكيف قام الامير الشاب خطيبا في الناس ، فأعرب عن قناعته بما يتقاضى اجرا على اتعابه ، وقال : "ايها الناس اجاع الله كبد من جاع على درهم . فقد رزقني رسول الله (صلى الله عليه وسلم) درهما كل يوم ، فليست بي حاجة الى احد" !!

(٢٢)

بعد عودتنا من مكة في اواخر السنة الثامنة بدأت ترد الى المدينة انباء وشائعات مقلقة عن تحركات يعتزم الروم وحلفاؤهم العرب من لخم وجذام وغسان وعاملة ، القيام بها ضد الدولة الاسلامية قبل ان يشتد ساعدها وتنفرد بحكم الجزيرة العربية ، وتشكل خطرا مؤكدا على الوجود البيزنطي في ديار الشام ... وما لبثت تلك القبائل ان بدأت فعلا بارسال طلائعها الى البلقاء..

كان الوقت صيفا ، والصحراء تحترق نارا ، والبلاد تعاني جدبا ومحلا ... والطريق طويل ، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص لقطع مئات الفراسخ عبر الصحراء ، وقتال قوم هم سادة الدنيا .. ومحنة "مؤتة" فوق هذا كله ليست بعيدة عن الاذهان!

لكن منطق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يتجاوز المصاعب ويفوق التحديات ، لان السكوت عن التحرك البيزنطي معناه الانحدار ، وانتظارهم لكي يوجهوا (هم) ضربتهم معناه الانتحار.. فلابد - اذن – من التجهز بسرعة ، وتولي زمام المبادرة ، والانطلاق عبر المتاعب والمصاعب للرد على استفزاز سيدة العالم ، واشعار العرب الخاضعين لها ان هناك دولة ثانية وكلمة اخرى.

ولا زلت اذكر كيف ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان في معظم الغزوات لا يحدد هدفه العسكري زيادة في الكتمان ... بل على العكس ، انه كان يعلن عن اهداف غير تلك التي يريد قصدها ، اما الان فقد بيّنه للناس : لبعد الشقة، وشدة الزمان ، وكثرة العدو ، من اجل ان يتأهّب الناس لذلك اهبته...

وما لبث (صلى الله عليه وسلم) ان امر بالتجهز ، وبعث الى مكة والى قبائل العرب يستنفرهم ، وحض الذين يملكون على النفقة في سبيل الله وتهيئة الدواب التي ستنقل المقاتلين الى الشمال ، ثم انطلق بنا في رجب يقود اكبر جيش عرفه تاريخ

الدعوة حتى ذلك الحين ، اغلب الظن انه بلغ ثلاثين الفا تصحبه عشرة الاف فرس ، وسلم لواءه الاعظم الى ابي بكر الصديق ، ورايته الى الزبير بن العوام.

بدأنا مسيرتنا الصعبة لقطع المسافات الطوال ... كنا نعاني الام العطش والجوع والحر ، وقلة وسائل الركوب ، وبعد الطريق ، وضيّق العطش خناقه علينا حتى ظننا ان رقابنا ستتقطع . وكان الرجل منا اذا اشتد به الحال ، ينحر بعيره ويعتصر فرثه فيشربه ، ثم يجعل ما بقي على كبده.

كنا بعد غروب الشمس المحرقة نعسكر لبضع ساعات ، جياعا ، عطاشا ، بينما كانت الريح المحملة برمل الصحراء تضربنا بعنف ، واخذ المجاهدون يتوارون خلف جمالهم ، مولين الريح ظهورهم ، مدثرين بارديتهم متشبثين بالارض. وخرج اثنان من اصحابنا من العسكر فاختنق احدهما وحملت الريح الاخر . فلما اصبحنا استأنفنا الزحف ، منهوكين ، محمري العيون ، مفطري الارجل ، مجمدي الريق ، مدويي الاذان ، مفريّي الجلود ، زلقين على الواح حجرية سود ، متخرقين لصخور بادية على شكل سوق الشجر ... وبلغ بعضنا من الهذيان ما اضطررنا معه الى ان نصب في حلوقهم ما أعتصر من كروش الابل .

اخيرا انتهى بنا المطاف عند تبوك في اقصى الشمال ، ويبدو ان الروم وحلفاءهم من قبائل العرب النصرانية ، سمعوا انباء هذا الجيش الكبير ، وقدرته العجيبة على اجتياز المصاعب ، فتراجعوا عبر اراضي الاردن وفلسطين صوب حمص حيث كان يعسكر هرقل ، مستهدفين – في الوقت نفسه – جر قواتنا الى الداخل والانقضاض عليها هناك . الا ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) فوت عليهم هذه الفرصة ، وعسكر بنا في تبوك جاعلا اياها اخر نقطة في توغله شمالا.

كنت قريبا منه (صلى الله عليه وسلم) وهو يشاور اصحابه في التقدم ، وسمعت عمر بن الخطاب يقول : يا رسول الله ان للروم جموعا كثيرة ، وليس بها احد

من اهل الاسلام ، وقد دنوت منهم حيث ترى ، وقد افزعهم دنوك ، فلو انك رجعت هذه السنة حتى ترى ، او يحدث الله عز وجل لك في ذلك امرا.

وفي تبوك راح الرسول (صلى الله عليه وسلم) يراقب الروم ويتحداهم ان يبرزوا له ويقاتلوه ، واخذ – في الوقت نفسه – يتصل بزعماء القبائل النصرانية المنتشرة في المنطقة ، ويتلقى سفاراتهم ، فيعقد معهم معاهدات الصلح والتعاون ، ويقطع بذلك ولاءهم للروم ويحولهم – بدلا من ذلك – الى حلفاء له ، وهو الهدف الذي كان يسعى الى تحقيقه منذ بدء صراعه مع الروم.

وكان ممن جاء الى تبوك (يوحنا بن رؤبة) صاحب ايلة ، حيث صالح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ووافق على ان يدفع له الجزية . كما جاءه اهل جرباء واذرح واعطوه الجزية اعرابا منهم عن ولائهم لدولة الاسلام وقطع علاقاتهم وارتباطاتهم بما سواها .

كنت حاضرا لحظة امر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بكتابة عهده ليوحنا ، ودهشت للسماحة التي تعامل بها مع نصارى العرب. وهو يملي كتابه هذا: "بسم الله الرحمن الرحيم . هذه امنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا بن رؤبة واهل ايلة ، سفنهم وسيارتهم في البر والبحر . لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من اهل الشام واهل اليمن واهل البحر . فمن احدث منهم حدثا فانه لا يحول ماله دون نفسه ، وانه طيب لمن اخذه من الناس . وانه لا يحل ان يمنعوا ماء يردونه ولا طريقا يريدونه من بر او بحر".

كما وجه (صلى الله عليه وسلم) (خالد بن الوليد) على رأس كتيبة الى امير دومة النصراني المدعو (اكيدر بن عبد الملك) فتمكن (خالد) من اسره وجاء به الى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فحقن دمه ، وصالحه على الجزية ، ثم اطلق سبيله فرجع الى بلده.

قفلنا عائدين الى المدينة بعد عشرين ليلة قضيناها هناك ، وبعد ان حقق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بغزوته تلك انتصارا على البيزنطيين وحلفائهم من نصارى العرب لا يقل خطرا عن انتصاراته الحاسمة ضد الوثنيين واليهود . فقد كسب عددا من القبائل العربية القاطنة في جنوب الشام الى جانب الدولة الاسلامية ، وقطع علاقاتها بالروم ، واشعر القبائل الاخرى بمدى قوة الدولة الجديدة وامتداد نفوذها الى قلب الديار التي كان اهلها يعملون لصالح سادتهم الروم ويلعبون دورا خطيرا في مقاومة امتداد الاسلام صوب الشمال ، ولم تكن محنة مؤتة سوى محاولة واحدة من محاولات هؤلاء العرب بوجه الاسلام ، وها هم الان – بعد تبوك – قد اقتنعوا بان الاحتماء بالسلطة الرومية لن ينقذهم من العقاب ، فبدأوا يتوافدون على الرسول (صلى الله عليه وسلم) طالبين الصلح معه ودفع الجزية له.

الا ان الانتصار الاهم ، هو ان استجابة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لتحدي الروم، وتقدمه لقتالهم ، وانسحابهم من طريقه ، وانتظاره اياهم قرابة عشرين يوما دون ان يحركوا ساكنا ، جاء ضربة قاصمة للسيادة البيزنطية في بلاد الشام ، واضعافا لمركزها هناك ، وسطوتها على القبائل العربية ، وكسرا لجدار الخوف العربي من القوة البيزنطية ، وتمهيدا للفتح الكبير الذي انطلق بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لكي يحررها من قبضة الروم.

(٢٣)

لايام طويلة بعد عودتنا من تبوك ... كان هذا الحدث المثير مدار احاديثنا اليومية..اطلقنا عليها جميعا "غزوة العسرة" لانها جاءت عسرة من الماء والحر والظهر والنفقة وطول الطريق ... قارناها بمحنة احد .... ففي وهج الغزوتين ونارهما اللافحة تميز المنتمون الى معسكر الاسلام .. درجات بعضها فوق بعض . وهذا شأن كل معسكر في تاريخ البشرية . فليس بنو ادم ملائكة يقفون صفا واحدا ولكنهم يتميزون في ايمانهم واخلاصهم وانتمائهم .. تميزهم الانتصارات الحاسمة والانكسارات الخطيرة .. وتفرق بينهم تجارب الراحة والسعادة وآلام المحن والنكبات.

لقد راينا بام اعيننا ، والرسول (صلى الله عليه وسلم) يدعو المسلمين ان يتجهزوا للرد على الروم ، عبر المجاعة والعطش وجحيم الصحراء وطريقها الطويل، اناسا يقفون في القمة ، واخرين يتحركون صعدا في منتصف الطريق لا يقدرون على الصعود خطوات اخرى الى اعلى وهم مع ذلك يحاولون ويحاولون ... وفئة ثالثة حرنت في مواقعها لا تريد ان تسعى ولا ان تتحرك ... وهنالك في الاسفل عند جدار المرتفع وفي منخفضاته ، طوائف كثيرة من المنافقين والمنهزمين يتخبطون كالحشرات والديدان مستمرئين البقاء في الحفر الضيقة.

انفق عثمان بن عفان نفقة عظيمة لم ينفق احد مثلها ، بلغت ، فيما حدثني به احد اصحابي ، سبعين الف درهم ، وتصدى بماله لمشكلة النقص الخطير في وسائل الركوب ، وراح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، يردد : "ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم".

وجاء ابو بكر بماله كلّه : اربعة الاف درهم ، فقال له (صلى الله عليه وسلم): هل ابقيت شيئا ؟ فاجابه : الله ورسوله اعلم ..

وجاء عمر بنصف ماله ... ورغب اهل الغنى في الخير والمعروف ... وكان الرجل يأتي بالبعير الى الرجل والرجلين فيقول : هذا البعير بينكما تتعاقبانه، ويأتي الرجل

بالنفقة فيعطيها بعض من يخرج .. حتى النساء اخذن يعنّ بكل ما قدرن عليه . ولقد حدثتني ام سنان الاسلمية فقالت انها رأت ثوبا مبسوطا بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في بيت عائشة ، فيه اسورة ومعاضد وخلاخل واقرطة وخواتيم لعدد من النساء قدمنه ليعنّ به المسلمين في جهازهم.

ورأيت سبعة من الانصار من فقراء بني عمرو بن عوف ، كانت لي صلة قربى باحدهم ، جاءوا الى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) متوسلين ان يحملهم على الدواب ، فاجابهم : (لا اجد ما احملكم عليه) ... ولمحتهم ينصرفون واعينهم تفيض من الدمع حزنا الا يرحلوا مع رسول الله(صلى الله عليه وسلم) لقتال الروم.

ولقد حدثني رجل من اهل المدينة كانت غزوة مؤتة قد جمعت بيني وبينه ، انه رأى اثنين من اولئك الانصار يبكيان ، وانه سألهما : ما يبكيكما ؟ فأجابا : جئنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليحملنا ، فلم نجد عنده ما يحملنا عليه ، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه ، فاعطاهما جملا له يستقي عليه الماء ، وزودهما بشيء من التمر ، فارتحلا الجمل وخرجا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

ولازلت اذكر قصة ابي خيثمة ، كيف انه بعد ان سار مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اياما ، قفل عائدا الى اهله في المدينة ، في يوم حار ، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في بستانه ، قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبرّدت له فيه ماء وهيأت له فيه طعاما فقال : رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في الشمس والريح والشمس ، وابو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم ؟ ما هذا بالنصف . والله لا ادخل عريش واحدة منكما حتى الحق برسول الله (صلى الله عليه وسلم) فهيّئا لي زادا .

وابو ذر !! لما ابطأ عليه بعيره تعبا وارهاقا ، اخذ متاعه وحمله على ظهره وخرج يتبع اثر المسلمين ماشيا . وفي مكان ما من الصحراء الممتدة . نظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ان هذا رجل يمشي على الطريق وحده ،

فقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) بحدسه العميق : كن ابا ذر : فلما تأمله القوم قالوا : يا رسول الله ، هو والله ابو ذر وقال (صلى الله عليه وسلم) : (رحم الله ابا ذر، يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده) .

وهناك من ابطأت بهم نياتهم عن الاستجابة للنداء ، ولكن من وراء نياتهم وافعالهم الظاهرة هذه قلوب يعمرها الايمان ، والرغبة في العطاء ، والندم العميق على اي تهاون او تفريط . ومن منا لم يسمع ويتابع قصة الثلاثة المخلفين : كعب ابن مالك ومرارة ابن الربيع وهلال ابن امية ؟

نهانا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن التحدث معهم من بين من تخلف عنه ، وكان لذلك وقع مؤلم في نفوسهم يصعب وصفه . ولقد حدثني كعب ابن مالك فيما بعد عن معاناته المبهظة فقال : تنكرت في نفسي الارض فما هي التي اعرف . ولبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ! واما انا فكنت اشب القوم وأجلدهم ، فكنت اخرج فأشهد الصلاة في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) واطوف في الاسواق ولا يكلمني احد ، وآتي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي : هل حرك شفتيه برد السلام علي ام لا ؟ ثم اصلي قريبا منه ، حتى اذا طال علي ذلك من جفوة الناس ، مشيت حتى تسوّرت جدار حائط ابي قتادة ، وهو ابن عمي واحب الناس الي ، فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام ، ففاضت عيناي . فبينما انا امشي في سوق المدينة اذا نبطي من انباط الشام – ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة – يقول : من يدلني على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له ، حتى اذا جاءني دفع الي كتابا من ملك غسان فإذا فيه : اما بعد فإنه قد بلغني ان صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك !

فقلت لما قرأتها : وهذا ايضا من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرته بها . حتى اذا كملت خمسين ليلة من حين نهى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن كلامنا ، وصليت الفجر وانا على ظهر بيت من بيوتنا ، قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي

الارض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ ينادي بأعلى صوته : يا كعب بن مالك ابشر ! فخررت ساجدا وعرفت ان قد جاء الفرج . واذن رسول الله بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا . فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ فكسوته اياهما والله ما املك غيرهما يومئذ . واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت الى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فتلقاني الناس فوجا فوجا يهنئوني بالتوبة. حتى دخلت المسجد فلما سلمت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال وهو يبرق وجهه من السرور: ابشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك امك . فقلت : امن عندك يا رسول الله ام من عند الله ؟ قال : لا بل من عند الله . وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه .

وهنالك ، غير هؤلاء وهؤلاء ، من ظلوا يتخبطون في بدايات الطريق ولا يقدرون على الخروج من حفره الضيقة : المعذرون من الاعراب الذين جاءوا يلتمسون الاعذار من الرسول (صلى الله عليه وسلم) كيلا يذهبوا الى القتال فلم يعذرهم الله سبحانه ، والمنافقون الذين راحوا يروجون شائعات الخوف والجبن والتردد ، ويهمس بعضهم في اذن البعض الاخر : لا تنفروا في الحر.. ولقد تحدث عنهم القرآن بضربات كاوية كجمرات جهنم : ﴿وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ❖ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ . وعندما انطلقوا مع زعيمهم عبد الله بن ابي ، ما لبثوا ان انقلبوا عائدين في اول الطريق وزعيمهم يردد:"يغزو محمد بني الاصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد الى ما لا قبل له به ، يحسب محمد ان قتال بني الاصفر اللعب ؟ والله كأني انظر الى اصحابه غدا مقرنين في الحبال "!!

(٢٤)

رحت اردد مع نفسي ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ❖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ❖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ وانا ارى وفود القبائل العربية تتدفق على المدينة يوما بعد يوم ، من كل اطراف جزيرة العرب واقاليمها الشاسعة المتباعدة .

ها هي ذي عقيدة الاسلام تنتشر في كل مكان ... وشهادة التوحيد وراياتها تخفق في الشمال والجنوب وفي الشرق والغرب ... في اليمن وحضرموت وعمان وهجر والبحرين وتهامة ونجد ... وعلى حافات العراق وفلسطين والاردن والشام...

الحمد لله .. لقد زرعت يارسول الله ، وآن لك بعد رحلة كدح استغرقت ما يزيد على العشرين عاما ان تبدأ الحصاد ... ولقد كان الموسم – والحق يقال – مترعا بالوعد والخصب والعطاء...

كان فتح مكة زعيمة الشرك ، وهزيمة التحالف الوثني الاخير في حنين ، اخر ضربتين حاسمتين للوثنية في جزيرة العرب ... انهار بعدها جدار الكفر ، وانطلقت الدعوة الى الاسلام بخفة وسرعة ، حيث ازيلت العوائق ، الى كل مكان ... وادركت القبائل العربية التي ظلت على شركها الا مناص لها من تحديد موقفها من الاسلام ودولته المتفردة بالحكم والسلطان في الجزيرة كلها ، وان عنادها وتشبثها بمواقفها السابقة فقد مبرراته بدخول مكة في الاسلام ، وانتماء هوازن ، اكبر القبائل الوثنية للدين الجديد . فراحت هذه القبائل تتسابق في ارسال وفودها الى المدينة مبايعة على الاسلام او مصالحة رسوله (صلى الله عليه وسلم) .

كان في طليعتها وفد ثقيف الذي قدم المدينة في شهر رمضان في اعقاب عودتنا من غزوة تبوك . وكان عروة بن مسعود ، احد زعماء ثقيف ، قد ادرك الرسول (صلى الله عليه وسلم) في طريق عودتنا من الطائف قبل ان نصل الى المدينة ، واعلن اسلامه، وقفل عائدا الى بلده يدعو قومه الى الاسلام معتمدا على منزلته فيهم ومحبتهم وطاعتهم

له ، الا ان حميتهم الجاهلية انستهم ذلك كله ، فرموه بالنبل من كل وجه واصابه احدها فخر صريعا ، وعندما سئل ، وهو يتضرج بدمائه ، ما ترى في دمك ؟ اجاب : كرامة اكرمني الله بها ، وشهادة ساقها الله لي، فليس في الا ما في الشهداء الذي قتلوا مع رسول (صلى الله عليه وسلم) قبل ان يرتحل عنكم فادفنوني معهم.

ومرت الشهور على مصرع عروة ، وبدأت ثقيف تدرك الا طاقة لها بحرب من حولها من القبائل العربية التي بايعت واسلمت . فاتفق زعماؤها على ان يرسلوا الى النبي (صلى الله عليه وسلم) رجلا يكلمه ، ووقع اختيارهم على عبد ياليل بن عمرو بن عمير ، احد اشرافهم ، الا انه تخوف ان يصنعوا به ما صنعوا بعروة ، فطلب منهم ان يرسلوا برفقته رجالا من شتى عشائر ثقيف، فاجابوه واختاروا له خمسة رجال اتجه بهم الى المدينة.

كنت بصحبة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عندما بدأوا حديثهم معه ... سالوه ان يدع لهم اللات لا يهدمها ثلاث سنين ، فابى عليهم ذلك ، فما برحوا يسالونه سنة سنة ويأبى عليهم ، حتى تنازلوا الى التماس ابقائها شهرا واحدا ، والرسول يابى ان يدعها يوما واحدا ...يبدو ان غرضهم من ذلك كان ان يسلموا – بعد عودتهم – من سخط سفهائهم ونسائهم وصبيانهم ، والا يروعوا قومهم بهدمها ، حتى ينتشر الاسلام بينهم . فسألوه ان يعفيهم من تحطيم اصنامهم بايديهم فاجابهم الى ذلك وارسل معهم ابا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ليهدماها . وبعد ان اعلنوا اسلامهم ، كتب لهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) كتابا وامر عليهم عثمان بن ابي العاص ، رغم حداثة سنة ، لكونه احرصهم على التفقه في الاسلام وتعلم القرآن.

حدثني احد اصحابي ، ويعمل تاجرا متنقلا بين الطائف ومدن الحجاز المجاورة فقال : عاد الوفد الى الطائف يصحبه المغيرة وابو سفيان ، وتوجه المغيرة فور وصوله الى اللات وراح يعمل فيها ضربا بمعوله ، وقومه يحمونه خشية ان يرمى او يصاب كما اصيب عروة بن مسعود . وخرجت نساء بني ثقيف حاسرات يبيكن ويندبن الهن وهو يتهاوى الى الارض قطعا من الحجارة الصماء . وما لبث المغيرة ان اتم مهمته ومحا من

الطائف ، المركز المهم الثالث في شمال الجزيرة ، رمزها الوثني الذي حجبها عن الالتحاق بالدعوة ردحا طويلا . وغدا الطائفيون من اشد الجماعات اخلاصا للدعوة حتى ان المغيرة نفسه قال عنهم : "لا اعلم قوما من العرب ولا قبيلة ، كانوا أصحّ اسلاما ولا ابعد ان يوجد فيهم غش لله ولكتابه منهم".

وهكذا جاء البذار الذي زرعه الرسول (صلى الله عليه وسلم) قبل عام واحد عند اسوار الطائف ، بثماره الحلوة!!

كان الوفد الثاني الذي قدم المدينة ، بني تميم ، وكان يترأسه عطارد بن حاجب في عدد كبير من رجالات تميم واشرافها ، وعندما وصلوا المسجد ظهرا نادوا رسول الله من وراء حجراته : ان اخرج الينا يا محمد ! فخرج اليهم وهو غير مرتاح لاسلوبهم البدوي الخشن في ندائه . وقام زعيمهم فالقى كلمة عدّد فيها مآثر بني تميم وفضلهم على الناس . فامر الرسول (صلى الله عليه وسلم) خطيبه ثابت بن قيس الخزرجي ان يرد على الرجل ، فقام قيس خطيبا في المجتمعين ، فبدأ كلامه بحمد الله والثناء عليه ، ثم تطرق الى نبوة الرسول وفضله ، وختم خطابه قائلا : "واستجاب لله ، حين دعاهم رسول الله ، نحن ، فنحن انصار الله ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه في الله..." واعقبه الزبرقان بن بدر شاعر تميم بقصيدة اكبر فيها مكانة تميم بين العرب، فأمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) شاعره حسان بن ثابت ان يرد على الرجل ، فاجابه بقصيدة اخرى. ولما انتهى الطرفان من القاء خطبهم وقصائدهم أعلن وفد بني تميم الاسلام ، فمنحهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) الجوائز والعطايا...

وقدم عدي بن حاتم الذي كان قد اعتنق النصرانية ولجأ الى الشام اثر اتساع سلطان المسلمين . وقال له الرسول (صلى الله عليه وسلم) : "لعلك يا عدي انما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال ان يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه . ولعلك انما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم

وقله عددهم ، فو الله ليوشكن ان تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف . ولعلك انما يمنعك من دخول فيه أن ترى ان الملك والسلطان في غيرهم ، وايم الله ليوشكن ان تسمع بالقصور البيض من ارض بابل قد فتحت عليهم" . وما لبث عدي ان اعلن اسلامه.

وراحت الوفود وزعماء القبائل تترى على المدينة : قدم فروة بن مسيك المرادي مفارقا لملوك كندة ، فاعلن اسلامه ، فاستعمله الرسول (صلى الله عليه وسلم) على قبائل مراد وزبيد ومذحج ، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة . وقدم عمرو بن معد يكرب في رجال من بني زبيد فاعلنوا اسلامهم . وقدم وفد كندة البالغ ثمانين رجلا بزعامة الاشعث بن قيس واعلنوا اسلامهم . وقدم صرد بن عبد الله الازدي في وفد من الازد واعلنوا اسلامهم ، فامره الرسول (صلى الله عليه وسلم) على قومه ، وامره ان يجاهد بمن اسلم منهم مشركي القبائل اليمنية المجاورة . كما قدم وفد آخر يحمل كتابا من ملوك حمير يعلنون فيه اسلامهم ومفارقتهم الشرك واهله، فاجابهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بكتاب يبين لهم فيه بعض فرائض الاسلام ، ويعلمهم بانه سيرسل اليهم عددا من خيرة اصحابه ، فيهم معاذ بن جبل وعبد الله بن زيد ومالك بن عبادة وغيرهم ، وعليهم ان يؤدوا اليهم ما سيجبونه من صدقة وجزية ، وامر عليهم معاذ بن جبل .

وقدمت وفود بلى والداريين (من لخم) وسلامان وغسان وغامد ، وبني اسد وبهراء وبني البكاء وبني فزارة وبني سعد ، وشهدت السنة التالية اسلام الفرس في اليمن ، وتوج ذلك باسلام باذان حاكم اليمن الفارسي ... وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ .

(٢٥)

من بين حشود الوفود التي تدفقت على المدينة ، لا ادي لماذا انطبعت في ذاكرتي تفاصيل اثنين منها ... ربما لانهما يمثلان النقيضين المتضادين في موقف الانسان من نداء الحنفية السمحاء ...

التسليم العفوي الصادق بدعوة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المتوافقة بتطابق مدهش مع بداهات العقل ومطالب الفطرة ..

والرفض الملتوي، المتذرع بالاباطيل والخرافات والاوهام التي لا يقرها عقل ولا تقبلها فطرة...

ارسلت بنو سعد بن بكر : ضمام بن ثعلبة الى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقدم المدينة واناخ بعيره عند باب المسجد ، ثم دخل المسجد ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) جالس بيننا ، ووقف قريبا منا وقال : ايكم ابن عبد المطلب؟

اجاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) : انا !

قال الرجل : يا ابن عبد المطلب ، اني سائلك ومغلظ لك في المسألة ، فلا تجد في نفسك...

قال : لا اجد في نفسي ، قل عما بدا لك

قال : انشدك بالله ، الهك واله من هو كائن بعدك ، الله بعثك الينا رسولا؟

قال : اللهم نعم.

قال : فانشدك بالله ، آلله امرك ان تأمرنا ان نعبده وحده لا نشرك به شيئا ، وان نخلع هذه الانداد التي كانت اباؤنا تعبد من دونه ؟

قال : اللهم نعم.

ثم جعل ضمام يذكر فرائض الاسلام الخمس واحدة واحدة ، حتى اذا فرغ قال : اشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له واشهد ان محمدا رسول الله .. ثم انصرف راجعا..

بعد اسبوعين التقيت رجلا من بني سعد قدم المدينة في بعض حوائجه فسالته عما فعل ضمام فقال : قدم الينا فاجتمعنا اليه فراح يصرخ فينا : بئست اللات والعزى ... فصرخ نفر منا : مه يا ضمام ، اتق البرص ، انق الجذام ، اتق الجنون ! قال : ويحكم ، انهما والله لا ينفعان ولا يضران ، وان الله قد بعث رسولا ، وانزل عليه كتابا استنقذكم به مما كنتم فيه ، واني اشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمدا عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما امركم به ونهاكم عنه...

سألت الرجل : وماذا كان جواب القوم ؟

اجاب : والله ما أمسى ذلك اليوم وفي حينا رجل ولا امرأة الا مسلما!!

وقلت في نفسي : هذا رجل يمثل بساطة الأميين في منطقهم وسلامة طريقتهم في جدلهم وخلو اذهانهم من العقد التي تعترض الحق في وضوحه وحسمه ... ومن يدري ، فلعل "ضمام" كان يستحضر في ذهته وهو يسال النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ثم وهو يخطب في قومه ، ان هذه الرسالة الجديدة مرت باطوار شتى من المحن والفتن ثم كشفت عن صدقها وسلامة جوهرها ، فليس ايمانه وايمان قومه وليد ساعة من كلام.

وتذكرت وفد نجران النصراني ، ربما لابحاره في اتجاه معاكس ، في تعامله مع الحق...

كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد بعث اليهم كتابا جاء فيه :

"اني احمد اليكم اله ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب ، اما بعد فاني ادعوكم الى عبادة الله من عبادة العباد ، وادعوكم الى ولاية الله من ولاية العباد ، فان ابيتم فالجزية ، وان ابيتم فقد اذنتكم بحرب والسلام".

وكانت النصرانية تسود جنوبي الجزيرة ، فرأى الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو في حرب مع الروم، ان يحدد نصارى نجران موقفهم من دولة الاسلام، خصوصا وان الروم كانوا يفرقون العطايا على مبشريهم هناك ، ويبنون لهم الكنائس، ويشجعونهم على المضي في تنصير القبائل المتوطنة هناك.

كان الوفد يضم اربعة عشر رجلا من اشراف النصارى ، دخلوا المسجد بارديتهم الملونة الثمينة ، فسلموا على الرسول (صلى الله عليه وسلم) فرد عليهم السلام ، ودعاهم الى الاسلام وتلا عليهم شيئا من القرآن ، فابوا ودخلوا معه في مناقشات عقيمة تضيع في لجتها ملامح الحق البين الذي جاء به القرآن ، من ذلك قولهم، وقد عرض عليهم الاسلام : انا قد اسلمنا قبلك ! فقال مخاطبا السيد والعاقب راهبي نجران : كذبتما ! يمنعكما من الاسلام ثلاث : اكلكما الخنزير، وعبادتكما الصليب ، وقولكما لله ولد . قالا : فمن ابو عيسى؟

ولم يجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) الا ان يوقف جدلا كهذا لا يوصل الى نتيجة ، ويعرض عليهم – بدلا من ذلك – المباهلة التي حددتها ايات القرآن الكريم التي تنزلت لكي تحسم امرا لا يحتمل مناقشة ولجاجا : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ❖ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ❖ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾

كانت المباهلة تقضي بان يجتمع الطرفان على صعيد واحد ويستنزلا لعنة الله وغضبه على الفئة الكاذبة . الا ان رجال الوفد النصراني تخوفوا عاقبة الامر وقال

زعيمهم:"اني اخاف ان يكون صادقا" ! وارتأوا ان يعرضوا على الرسول (صلى الله عليه وسلم) الحكم فيهم بما يراه . فصالحهم وكتب لهم عهدا يمثل صورة مشرقة من صور السماحة ، لم يفرض عليهم فيه سوى جزية عينية قدرها الفا حلة في السنة ، جاء فيه : "..ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله ، على انفسهم وملتهم وارضهم واموالهم وغائبهم وشاهدهم وبيعهم وصلواتهم ، لا يغيروا اسقفا عن اسقفيته ولا راهبا عن رهبانيته ولا واقفا عن وقفانيته، وكل ما تحت ايديهم من قليل او كثير ... ومن سأل منهم حقا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ... ولا يؤاخذ احد منهم بظلم آخر . وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة النبي ابدا حتى يأتي الله بأمره ان نصحوا واصلحوا فيما عليهم" . وقد دخل يهود نجران كذلك في هذا الصلح .

وبهذه المعاهدة السمحة قطع الرسول (صلى الله عليه وسلم) الصلة بين اولئك العرب المتنصرين وبين دولة الروم التي يشتبك معها في الحرب.

وتساءل كثيرون منا : هل سيحترم اهل الكتاب ما عليهم من واجب ؟ وهل سينصفون الدين الذي رعى ذمامهم؟!

ولقد جاء الجواب بعد فترة لم تطل كثيرا ... اذ سرعان ما راحوا يساعدون على اشعال الفتن في جنوب الجزيرة ، كما كاتبوا الاسود العنسي (المتنبيء) الكاذب، فسار اليهم في طريقه الى اليمن ، تماما كما فعل نصارى تغلب في تأييدهم مسيلمة الكذاب حين ادعى - هو الاخر- انه نبي!

وقلت في نفسي – وأنا أكاد اتميز من الغيظ – ان الامر ليس ايمانا منهم بهذه النبوات الزائفة ، ولكنه الاعانة على حرب الاسلام باي سلاح ومع اي حليف!

(٢٦)

عندما اشرف العام التاسع للهجرة على نهايته وحان موعد الحج وجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) نفسه مضطرا للبقاء في المدينة كي يتفرغ للوفود القادمة اليها والمغادرة اياها دونما انقطاع ، واناب عنه لامامة المسلمين في حجهم ذاك ابا بكر الصديق.

وما ان غادر الصديق المدينة في طريقه الى البيت الحرام حتى نزلت ايات (براءة) من صدر سورة (التوبة) تعلن تصفية الوجود الوثني من شبه جزيرة العرب ، ومنح اتباعه وقتا كافيا للتفكير في الخروج من حضيض الجاهلية الذي ظلوا يتمرغون فيه مئات السنين ، وها قد آن الاوان لكي يؤوبوا الى الحق ويلتزموا الطريق المستقيم، والا فان دين التوحيد لن يمنحهم فرصة اخرى بعدما صبر عليهم وقتا طويلا : ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ❖ فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ❖ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ .

وسرعان ما حمّل الرسول (صلى الله عليه وسلم) عليا بن ابي طالب هذه الايات والتعليمات المرفقة بها وامره ان ينطلق بها الى مكة لكي يتلوها على جموع الحجاج هناك ، وفيهم الكثيرون من الذين لا يزالون على شركهم وجاهليتهم.

وبينما تولى ابو بكر امارة الحج راح علي يتلو على الناس ايات براءة وتعليمات الرسول (صلى الله عليه وسلم) في يوم الاضحى :

(لا يقربن المسجد الحرام مشرك بعد عامه هذا ، ولا يطوفن بالبيت عريان . ومن كان بينه وبين رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عهد فله عهده الى مدته ، ومن لم يكن له عهد فمدته اربعة اشهر.. وان الله لا يدخل الجنة الا من كان مسلما..)

ورحت افكر مع نفسي وانا استمع خطاب علي : ها قد آن الاوان لتصفية الشرك من جزيرة العرب .. يكفي ان الاسلام ظل اثنين وعشرين عاما يحارب خرافة الوثنية بالتعليم والتوجيه كلما اتيحت له فرصة لنشر المعرفة وغرس الادب، وبالقصاص والقتال كلما وقف في طريقه الجهال والضلال يبطلون سعيه او يصدون عنه . وقد منح الاسلام الوثنية اول الامر حق الحياة ، وترك من يرتد عنه يرجع اليها اذا شاء ولم يفعل ذلك اعزازا لها ، انما هو حسن الظن بعقل الانسان وضميره ، فلما تبين ان الوثنيين يستخفون بكل شيء وانهم يستغلون الحق الممنوح لهم في الفتنة والعدوان والقتل لم يبق لتركهم من حكمة ، ومن ثم نزل الوحي يعالن المشركين بالقطيعة ويرفض منهم كل اعتذار ، ثم يسرد ما اسلفوا من سيآت على انه طبع فيهم لم ينفكوا عنه يوما ولا يرجى ان ينفكوا عنه ابدا...

وقلت في نفسي ايضا : ان مكة قاعدة الوثنية سقطت ، وأصبحت الدولة الاسلامية هي القوة الاساسية المتفردة في زعامة الجزيرة ، فلابد من تحديد جميع سكانها موقفهم في الولاء . فاما اهل الذمة فكانت الجزية رمز انتمائهم وولائهم ، واما العرب فقد اعلنت معظم قبائلهم في عام الوفود وقبله عن طاعتها لدولة الاسلام وانتمائها للدين الجديد . ولم يتبق الا قلة كان لابد من توجيه نداء اليها لتحديد موقفها .. ان وجود فئة لا تدين بمباديء الدولة ولا تخضع لقوانينها امر بالغ الخطورة في كيان الدولة الداخلي ، وكان لابد ان يخضع هؤلاء الناس لنظام الدولة او يحاربوه ، بمعنى ان يوضعوا في حكم الاعداء ، ولكنهم اعداء داخليون يترتب على عدوانهم خطر كبير على كيان الدولة . من هنا لم يقبل الاسلام منهم الا الدخول فيه . هذا الى ان المشركين ليس لهم ديانة تستحق الاحترام ، ولا مثل تفرض هذا الاحترام كاصحاب الديانات السماوية الاخرى على ما لحقها من تزييف وتحريف.

الحمد لله ... لقد اصبح البيت الحرام طاهراً من مظاهر الشرك، واصبحت تقاليد الحج طاهرة هي الاخرى ، وصار تحت السلطان الاسلامي فليس من المعقول ان يسمح للمشركين بممارسة تقاليد الوثنية فيه.

ويوما ونحن نغادر منى عائدين الى مكة فوجئت بصديق لي تربطني به علاقة قديمة وهو يسألني عن الاسباب والدوافع الحقيقية التي جعلت الاسلام لا يقبل الوثنية في جزيرة العرب ، بينما قبل الاديان الاخرى كاليهودية والنصرانية فسمح لهما بالبقاء.

اجبته وانا احاول ان استجمع شتات ذهني وامسك بالخيوط من اطرافها كافة: هناك ضرورتان احداهما دينية والاخرى عسكرية ترتبطان ببعضهما وتسوقان الى اتخاذ اجراء حاسم كهذا.

فاما اولاهما فهي ان الوثنية ، بخلاف سائر الاديان الاخرى ، تمثل الدرك الاسفل في موقف الانسان الديني من الكون وخالقه .. موقف يشده الى الحجارة ويصده عن التقدم الى الامام ، ويحجب عن بصيرته الرؤية الشاملة لدور الانسان في الارض وعلاقته بالقوى الاخرى في الوجود . ولو بقي العربي على وثنيته لظل بحكم موقفه المحدود هذا ، اسير جهله وتأخره ، وسجين عالم تضيق افاقه لكي ما تلبث ان تعزله عن العالم وتحصره في قلب الصحراء.

واما ثانيتهما فتقوم على ان دولة الاسلام التي انشئت في قلب المنطقة العربية ، وامتد نفوذها السياسي الى ارجاء الجزيرة كافة ، وبدأت تحشد قواها وطاقاتها الجهادية للانتقال صوب الخطوة التالية في التحرك الى العالم المحيط كله ، هذه الدولة كان عليها ان تعتمد خطة صارمة ، واضحة المعالم ، من اجل ان تحمي وجودها في الجزيرة من جيوب الوثنية العربية والتجمعات الجاهلية ، وان تحيط مركز انطلاقها الى العالم بسياج من الوحدة الدينية والسياسية على السواء لئلا تضرب من الخلف وهي تجاهد القوى الخارجية حاشدة لها جل طاقاتها.

وفي ضوء هذا الارتباط بين الضرورتين الدينية والعسكرية يمكن ان نتفهم موقف الاسلام ، تشريعا وتطبيقا ، ازاء عدد من الاديان . فمهادنته اليهودية والنصرانية في جزيرة العرب نفسها كان ينبثق عن كونهما كتابيتين متقدمتين في اصولهما

وبعض تصوراتهما عن سائر الديانات الاخرى السابقة والمعاصرة للاسلام . فضلا عن كونهما لا تمثلان – من الناحية العددية – خطرا اكيدا على دولة الاسلام في الجزيرة.

وهكذا جاء اعلان (براءة) نصرا دينيا وعسكريا لدولة الاسلام وهي تتهيأ للخطوة التالية في اعادة بناء العالم وجهاد زعاماته الكافرة جميعا من اجل ايصال الدعوة الاسلامية ومنح حرية الاعتقاد للانسان حيثما كان.

(٢٧)

لا زلت اذكر تلك اللحظة السعيدة ، المترعة بالشوق والغبطة ، وانا اتلقى الخبر العزيز من جاري : الحارث بن سليم المزني .

قرع علي الباب فجر ذلك اليوم الفريد وقال بصوت متهدج : سوف يحج رسول الله((صلى الله عليه وسلم)) بنفسه هذه المرة ، وسنحج معه ان شاء الله..

لم اتمالك نفسي ، فانكببت عليه اشبعه لثما وانا اسأله في محاولة للتثبت من النبأ : هل انت متأكد من ذلك ؟

اجاب وهو يربت على كتفي : لقد اعلنها في المسجد عقب الصلاة .. هويت على الارض ساجدا شكرا وامتنانا للفرصة النادرة التي وهبنا الله اياها .. ان نحج مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لاول مرة بعد انتظار السنين الطوال .. فالحمد لله.

ودّعني الحارث على عجل قائلا انه سيرجع الى داره لكي يحزم امتعته استعدادا للرحلة المباركة ، وهرعت انا الى اهلي لكي ازف اليهم النبأ واتهيأ – انا الاخر – لرحلة العمر.

ما لبثا ان غادرنا المدينة في الخامس والعشرين من ذي القعدة، بينما تدفق المسلمون الجدد على مكة من كل مكان لكي يشهدوا اول حجة على الطريقة الاسلامية التي لا دخل فيها من طقوس وتقاليد وثنية ، وليلتقوا برسولهم الكريم (صلى الله عليه وسلم) ويقبسوا عنه مزيدا من التعاليم.

وبدأت شعائر الحج ، فانطلق الاف المسلمين ، القدماء والجدد ، وراء نبيهم ومعلمهم(صلى الله عليه وسلم) وهو يريهم مناسكهم ويعلمهم سنن حجهم.

ورأى (صلى الله عليه وسلم) ان يفيد من فرصة التجمع الكبير هذا ، فيلقي فينا خطابا جامعا يؤكد فيه القيم والتعاليم التي بعث من اجلها ، وكانه كان

يدرك، باحساسه الصادق العميق ، ان هذه ربما تكون اخر فرصة يلتقي فيها بحشد كبير من اتباعه كهذا الذي يلتقي به اليوم .

وقف قبالتنا في عرفات ، وشفق المغيب يلقي على جبهته مزيدا من النور والمهابة والجلال ، وراح يلقي تعاليمه وكلماته ، ومن ورائه رجل جهوري الصوت يصرخ معيدا القول ليسمعه الوف الحجيج:

"ايها الناس اسمعوا قولي فاني لا ادري ، لعلي لا القاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف ابدا.

"ايها الناس ان دماءكم واموالكم عليكم حرام ، الى ان تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا. وانكم ستلقون ربكم فيسألكم عن اعمالكم – وقد بلّغت – فمن كانت عنده امانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها . وان كل ربا موضوع ولكن لكم رؤوس اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . قضى الله انه لا ربا ، وان ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله. وان كل دم كان في الجاهلية موضوع ، وان اول دمائكم اضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، فهو اول ما أبدا به من دماء الجاهلية...

"ايها الناس ان الشيطان قد يئس ان يعبد بارضكم هذه ابدا ولكنه يطمع فيما سوى ذلك، فقد رضي به مما تحقرون من اعمالكم فاحذروه على دينكم.

" ايها الناس إنما ﴿**النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ**﴾...

"ايها الناس ان لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا فاستوصوا بهن خيرا فانهن عندكم عوان لا يملكن لانفسهن شيئا ، وانكم انما اخذتموهن بامانة الله..

"فاعقلوا ايها الناس قولي فاني قد بلغت . وقد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا ابدا ، امرا بينا ، كتاب الله وسنة نبيه.

"ايها الناس اسمعوا قولي واعقلوه ، تعلمن ان كل مسلم اخ للمسلم ، وان المسلمين اخوة ، فلا يحل لامريء من اخيه الا ما اعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن انفسكم . اللهم هل بلغت ؟"

اجبناه جميعا وبصوت واحد ارتفع الى عنان السماء : اللهم نعم . فقال : " اللهم اشهد "..

بعد ذلك بقليل ، قال (صلى الله عليه وسلم) للوفود المحتشدة حوله عند جمرة العقبة ، ما يشعر بحلول الاجل القريب :"خذوا عني مناسككم ، فلعلي لا احج بعد عامي هذا " !!

ووجدتني اكافح للامساك بدمعتين كادتا ان تفرا من عيني ، ولمحت عمر بن الخطاب يكافح هو الاخر كيلا تفضحه الدموع ... كان وجهه ذو الملامح الواضحة يفصح عن حزن عميق.. وسمعت اكثر من واحد ممن كان قريبا من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يردد بصوت لا يكاد يسمع : فداك ابي وامي يارسول الله...

وقفلنا عائدين الى المدينة ، ولم تمض سوى ايام معدودات حتى بدأ الرسول (صلى الله عليه وسلم) بتجهيز جيش كبير في مطلع السنة الحادية عشر ، وامر عليه القائد الشاب اسامة بن زيد بن حارثة تقديرا منه للعناصر الشابة من اصحابه ورفضا للحساسيات الاجتماعية العتيقة التي ما كانت تسمح لمن كان آباؤهم عبيدا يباعون ويشترون ان يتولوا قيادة السادة !! وردا عمليا على محنتنا في مؤتة حيث كان زيد بن حارثة ، والد القائد الشاب قد شاط في رماح الروم ... وامر(صلى الله عليه وسلم) مولاه اسامة ان يوطيء الخيل تخوم البلقاء والداروم من ارض فلسطين.

انطلق اسامة بنا شمالا ، لم يتخلف منا احد ، وعلى رأسنا المهاجرون الاولون . وما لبث ان عسكر بنا في (الجرف) على بعد فرسخ من المدينة ، ريثما يتم تجميع المقاتلين . وهناك بلغته انباء مرض رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

لم نطق صبرا على البقاء والانتظار ورسولنا (صلى الله عليه وسلم) يعاني الالام، فهبطنا عائدين الى المدينة ، ودخل اسامة على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقد عجز عن الكلام ، فجعل يرفع يديه الى السماء ويضعهما على رأس اسامة ... وعرف اسامة انه يدعو له..

(٢٨)

في مطلع ربيع الاول من العام الحادي عشر للهجرة خرج الرسول (صلى الله عليه وسلم) الى بقيع الغرقد حيث تنتشر مقابر اهل المدينة فناداهم واستغفر لهم: (السلام عليكم اهل المقابر . ليهنأ لكم ما اصبحتم فيه مما اصبح الناس فيه. اقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها اولها ، الاخرة شر من الاولى...).

ورجع الى اهله ، وحينذاك بدأ وجع الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي انتهى بانتقاله الى الرفيق الاعلى.

قالت ام المؤمنين عائشة : "رجع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من البقيع فوجدني وانا اجد صداعا في رأسي ، وانا اقول : وارأساه ! فقال : بل انا والله يا عائشة، وارأساه" . وراح يدور على نسائه واوجاعه تزداد وطأة ، حتى غلبته على نفسه فاستأذن ازواجه ان يمرّض في بيت عائشة فاذنّ له . وخرج يمشي بين رجلين من اهله : علي والفضل بن عباس ، عاصبا رأسه، تخط قدماه حتى دخل بيت عائشة.

اخذت الحمى تزداد شدة ، حتى ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) طلب من اهله ان يريقوا عليه سبع قرب من آبار شتى ، ولما راحوا يصبون عليه الماء طفق يقول : (حسبكم حسبكم) . وعندما أحس ببعض الارتياح خرج الى المسجد عاصبا راسه حتى جلس على المنبر فكان اول ما تكلم به انه صلى على اصحاب احد واستغفر لهم ، ثم قال : (ان عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله).

ولمحت ابا بكر الصديق وكأنه ادرك مغزى كلام الرسول (صلى الله عليه وسلم) فبكى وقال : "بل نفديك بانفسنا وابنائنا" فاجاب الرسول (صلى الله عليه وسلم): (على رسلك يا ابا بكر) ثم التفت الى من حوله وقال: " انظروا هذه الابواب اللافظة في المسجد ، فسدوها الا بيت ابي بكر ، فاني لا اعلم احدا كان افضل في الصحبة عندي يدا منه . ولو كنت متخذا من العباد خليلا لاتخذت ابا بكر خليلا ،

ولكن صحبة واخاء وايمان حتى يجمع الله بيننا عنده" . وعاد الى بيته ودهمته نوبة الحمى والالم مرة اخرى.

طلب الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، بعد ان اعجزه المرض عن اداء مهامه ، ان يامروا ابا بكر ليصلي بالناس . فقالت عائشة : يا نبي الله ، ان ابا بكر رجل رقيق، ضعيف الصوت كثير البكاء اذا قرأ القرآن . قال : فمروه فليصل بالناس . وكانت عائشة ترمي من وراء ذلك الا يدفع ابوها الى موقف يؤدي الى تشاؤم الناس منه وحاشاه ، لان الناس لا يحبون رجلا قام مقام نبيهم ابدا . فصلى ابو بكر بنا ثلاثة ايام . فما ازددنا – له – رغم ذلك – الا حبا ، اذ يكفي ان رسولنا (صلى الله عليه وسلم) انابه عنه في الصلاة.

وفي يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الاول خرج (صلى الله عليه وسلم) لكي يلقي نظرة علينا ، ونحن نقف صفوفا نؤدي الصلاة خلف ابي بكر الصديق، وما ان رفع الستر واطل علينا حتى كدنا نفتن في صلاتنا برسول الله حين رأيناه، فرحا به ، وانبسطت اساريرنا فاشار الينا ان نثبت في صلاتنا ، وتبسم مسرورا لما رأى من هيئتنا في الصلاة . ونكص ابو بكر الى الوراء اعتقادا منه ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) سيؤمنا بنفسه في صلاتنا هذه ، الا ان الرسول تقدم اليه ودفعه في ظهره قائلا : (صل بالناس) ، وجلس الى جنبه ، وصلى قاعدا عن يمين ابي بكر. فلما فرغنا من الصلاة راح الرسول (صلى الله عليه وسلم) يتحدث الينا رافعا صوته ، حتى ظننا ان قد زال ما به من وجع.واستأذنه ابو بكر في الذهاب الى اهله بالسنح في ضواحي المدينة . وهرعنا الى علي نسأله : يا ابا الحسن كيف اصبح رسول الله ؟ فقال : اصبح بحمد الله بارئا !

لكن تلك الاشراقة لم تكن سوى صحوة الموت .. ولقد حدثتنا عائشة عن اللحظات الاخيرة من ذلك اليوم الثقيل . قالت : "رجع الي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في ذلك اليوم حين دخل من المسجد فاضطجع في حجري ، فدخل علي رجل من آل ابي بكر وفي يده سواك اخضر، فنظر رسول الله اليه في يده نظرا عرفت انه يريده فقلت : يارسول الله ، اتحب ان اعطيك هذا السواك ؟ قال : نعم . فاخذته فمضغته

حتى لينته ثم اعطيته اياه ، فاستن به كاشد ما رأيته يستن بسواك قط ، ثم وضعه . ووجدت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يثقل في حجري ، فذهبت انظر في وجهه فاذا بصره قد شخص وهو يقول : (بل الرفيق الاعلى من الجنة) فقلت : خيّرت فاخترت والذي بعثك بالحق . وقبض رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو يقول : (قاتل الله قوما اتخذوا قبور انبيائهم مساجد) ويردد : (الصلاة وما ملكت ايمانكم) حتى جعل يغرغر بها صدره وما يكاد يفيض بها لسانه.

كنا متجمهرين في المسجد والجهات المحيطة به وقد شخصت ابصارنا الى السماء ندعو الله ، وما لبث النبأ ان انقض علينا كالصاعقة ، ورأيت عمر بن الخطاب وقد كسى وجهه مزيج من ملامح الحزن والدهشة والتساؤل والحيرة والغضب، يقول :"ان رجالا من المنافقين يزعمون ان رسول الله قد توفي ، وان رسول الله ما مات ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه اربعين ليلة ، ثم رجع اليهم بعد ان قيل : قد مات . والله ليرجعن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كما رجع موسى فليقطعن ايدي رجال وارجلهم زعموا ان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مات"!

واقبل ابو بكر ، حتى نزل على باب المسجد ، وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت الى شيء حتى دخل على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في بيت عائشة، ورسول الله مسجى في ناحية البيت ، فكشف عن وجهه وقبله ثم قال : بأبي انت وامي ، اما الموتة التي كتب لله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة ابدا. ثم رد الغطاء على وجه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ثم خرج وعمر لا يزال يكلمنا فقال : على رسلك يا عمر . انصت ! فتجمهرنا حوله ورنونا اليه ، فحمد الله واثنى عليه ثم قال : "ايها الناس انه من كان يعبد محمدا فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت " ثم تلا : **﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾** .

فو الله ما هو الا ان سمعنا ابا بكر يتلو هذه الاية حتى دهشنا وتحيّرنا ، ولم تعد ارجلنا تحملنا ، فوقع بعضنا على الارض ، وعرفنا ان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد مات !!

(٢٩)

يصعب على المرء ان يقعد في بيته مرغما ، لا سيما اذا كان مقاتلا لم تفته غزوة او معركة على مدى عشرة اعوام او تزيد .

لقد اوغلت في العمر ولم يعد بمقدوري ان امتطي فرسا او احمل سلاحا ... لم يعد بمقدوري ان اجتاز المسافات الطوال لصد عدو او مباغتته...

رحم الله الايام الخوالي .. زمن الجهاد الموصول ، حيث التوجه لقتال المشركين او اليهود او الروم ، نزهة تمنحنا غذاء الجسد والروح والوجدان ، وتشبع توقنا الملهوف للحصول على رضا الله سبحانه والفوز باحدى الحسنيين .

الآن اجدني مضطرا للقعود واخواني يتدفقون على ديار نجد واليمامة والبحرين وعمان واليمن...

لقد اعلن الصديق خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الجهاد ضد المرتدين ، واستنفر كل قادر على حمل السلاح لمجابهة الفتنة العمياء والقضاء عليها.

عندما انطلق جيش اسامة اول مرة التحقت به ، وكنت امني نفسي بتوظيف خبرتي القتالية في جهاد الروم بارض الداروم في فلسطين ، كما امرنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وما ان عسكرنا في الجرف شمالي المدينة حتى جاءتنا الانباء المقلقة عن مرض رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلم نطق البقاء او المضي قدما ، ووجد الكثيرون منا انفسهم مدفوعين مع اسامة نفسه للعودة الى المدينة من اجل الاطمئنان على صحة نبينا عليه افضل الصلاة السلام .

وقلت في نفسي : ان هي الا محنة عابرة ويستعيد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صحته وعافيته ونرجع نحن الى معسكرنا لكي نستأنف المسير صوب الشمال. لكن الذي حدث كان اكبر بكثير من كل توقعاتنا ... لقد توفي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

كانت الصدمة قاسية .. ولايام متواصلة احسست كما لو اني اشيخ قبل الاوان، وان قدراتي آخذة بالضعف ، واني ربما لن اكون قادرا على الاستجابة للنداء الباطني الملح بالمشاركة في حملة اسامة .

وعندما استأنف القائد الشاب مسيره الى الشمال ، وجدتني عاجزا تماما عن اللحاق به.. اهو المرض الذي دهمني فجأة ؟ اهو الحزن العميق الذي افترس قواي؟ لا ادري على وجه التحديد ، وكل الذي اعرفه انني احسست باني كبرت كثيرا وان قدراتي اخذت تخونني ، وزادني حزنا الا اقدر على المشاركة في قتال المرتدين الذين اخذوا يطرقون مداخل المدينة بين الحين والحين.

كنت اقف متكئا على جدار مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) انصت لما كان يدور بين عمر بن الخطاب وخليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ... كان يلح على الصديق باسترجاع جيش اسامة لكي يجابه به المرتدين .. وسمعت ابا بكر يقول بصرامة مدهشة :"لن ارد جيشا جرده رسول الله (صلى الله عليه وسلم).." .

وعرض عليه بعض الصحابة ان يتريث في قتال مانعي الزكاة ، فرد عليهم بالحسم نفسه "سأقاتلنهم حتى ولو تخطفتني الذئاب" واقسم انه سيلاحقهم حتى على عقال كانوا يؤدونه لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وقلت في نفسي : هاهم تلامذة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعرفون – في لحظات الحيرة والخيار الصعب – من يختارون ليكون خليفة عليهم ... فهاهو ذا الموقف المدهش الاخر للصديق ،بعد موقفه ذاك عند وفاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

وما لبث الصديق ان اعلن عن تشكيل فرق الانقاب للدفاع عن مداخل المدينة ضد هجمات المرتدين ، واعطى قيادتها للزبير بن العوام وعلي بن ابي طالب ، ريثما يتجمع القادة والمتطوعون لملاحقة المرتدين وادعياء النبوة في اطراف الجزيرة كافة.

نهضت متثاقلا لكي اجهز نفسي والحق باحدى فرق الانقاب ، وصرخت زوجتي : ما الذي تبغيه يا ابا سليم ؟

اجبتها وانا اجر قدمي جراً عبر الفناء الصغير : الحق باخواني لجهاد اعداء الله ... نظرت الي بدهشة ممتزجة بالاشفاق وتساءلت مرة اخرى: وانت في هذه الحال ؟..

اجبتها وانا احس بتزايد الفاصل بيني وبين رغبتي الملحة : ساحاول .. ثم اردفت وانا اتنهد : من يدري ؟ فلعل القتال ينسيني بعض ما اعانيه ..

قالت وكأنها تتوسل الي : لا يا ابا سليم ... لا ... فانني اخشى ان تخونك قواك، وان يشد عليك المرض ... لقد منح الله سبحانه المرضى رخصة تبيح لهم القعود ريثما يتماثلون للشفاء .. واني ادعو الله لك به..

وقلت في نفسي: انها لا تدري.. فان المرض، وربما الموت نفسه، اهون على المجاهد من ان يجد نفسه مرغما على القعود وفيه نفس او عضو يتحرك.. فلا حول ولا قوة الا بالله..

وما لبث الصديق ان حشد جموع المتطوعين واعطى قيادتهم للمجاهدين الكبار الذين كانوا ينتظرون اشارة البدء : خالد بن الوليد ، عمرو بن العاص ، عكرمة بن ابي جهل ، العلاء الحضرمي، شرحبيل بن حسنة وغيرهم ..

انطلقوا باسم الله لكي يدافعوا عن عقيدة الاسلام ودولته التي سهر الرسول (صلى الله عليه وسلم) على اقامتها السنين الطوال .. ولكي ينكسوا رايات المرتدين ويعيدوا لجزيرة العرب وحدتها بعد اذ كادت الفتنة العمياء ان تعيدها الى الوراء وتجعلها شتاتا.

كانت الأنباء تأتينا من جهات الجزيرة الاربع غامضة ، متضاربة حينا ، واضحة بينة، قاطعة كالسكين ، حينا اخر ، وكنت احس بنبضات قلبي يزداد

وجيبها وانا اتابع هذه الانباء بلهفة جعلتني اغفل عن الطعام والشراب والنوم رغم حاجتي الملحة اليها جميعا.

كانت ملامح الفرح والحزن تتعاقب كالظلال على وجهي الذي اكتسحته التجاعيد على حين غفلة ... ومن بين حشود الانباء التي كانت تصل المدينة ... من بين حشود الانتصارات والانكسارات ، لا زلت اذكر ما كان يردنا من جبهة اليمامة حيث القتال الضاري مع بني حنيفة ونبيهم مسيلمة الكذاب.

احدى هذه الانباء ذكرت ان اصحابنا تضعضعوا وهم يلتحمون بالمرتدين هناك .. وان سيوف اعداء الله راحت تحصدهم بغير ما رحمة قريبا من البستان الذي كان مسيلمة يتسوّر فيه .. وان اكثر من عشرة الاف رجل ، اغلبهم من القراء، استشهدوا هناك..

نبأ اخر جاء يحمل الينا بدايات الفرج ويجعل انفاسنا اللاهثة تتباطأ قليلا.. لقد تسلم خالد بن الوليد الراية لحظة وصوله الى هناك ونادى في المقاتلين: تمايزوا لكي نعرف بلاء كل حي .. وان القبائل راحت تتسابق على الموت ، وتندفع باتجاه السور وتضيق الخناق على المرتدين ... وان احد المجاهدين رمى بنفسه داخل السور وتمكن من فتح احد الابواب فاندفع جند الله الى الداخل ... الى حديقة الموت هذه ... وراحوا يحصدون اعداء الله ويثأرون للقراء الذين ذبحتهم سيوف المرتدين.

ثم ما لبث ان جاءنا النبأ الذي انتظرناه طويلا وتعلقت ابصارنا به: مسيلمة الكذاب نفسه!

ولمحت زوجتي تخرج من جانب الفناء وتسألني بلهفة : ما الذي حدث يا ابا سليم؟

صرخت : لقد قتل الكذاب ...

وانكببنا معا لكي نسجد شكرا لله ... ولم استطع ان اوقف سيال دموعي وانا ارى زوجتي تبكي بصمت...

يا الله... ها هو ذا الكذاب الشرس يسقط اخيرا وتفيء ارض اليمامة الى دولة الاسلام.

ورغم الفرحة الكبيرة ، فان ثمة ما كان يعكرني ... هاجس خفي مترع بالالم والحسرة والمرارة والشوق والتمني..

ماذا لو كنت معهم يا ابا سليم ؟!

(٣٠)

يتصارع الحزن والفرح في منحنيات النفس ... اخوة العقيدة والجهاد يتدفقون على ديار الشام وفلسطين والعراق ، يلاحقون الفرس والروم ، ويفتحون الارض ، ويحررون العباد.. وانا قاعد في مكاني لا اكاد ابرحه الا لكي اجر قدمي جرا الى مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لسماع انباء الفتوحات وتلقي بشريات النصر العظيم.

جندك يا رسول الله يتدفقون على مشارق الارض ومغاربها .. يقودهم صحابتك الكرام الذين تعلموا منك الكثير ايها القائد الكبير ... ومن ورائهم خليفتك (الصديق) يرسم لهم الخطط، ويصدر اليهم الاوامر ، بحدس عجيب وقدرة مدهشة لا تكاد تخطئ او تميل.

لقد زرعت يا رسول الله وها هوذا زرعك يخرج شطأه فيستغلظ ويستوي على سوقه لكي يعجب الزراع ويغيظ الكفار ...

انطلق جند الله لكي يعملوا على جبهتين عريضتين :العراق والشام . اما في العراق فقد وجه (الصديق) جيشا الى اطرافه الجنوبية بقيادة خالد بن الوليد ومعه المثنى بن حارثة الشيباني ، فاخضع القبائل العربية التي كانت تقيم جنوبي نهر الفرات ، وانتصر على الفرس ودخل الحيرة والانبار .

واما في الشام وفلسطين ، فقد كانت حملة اسامة بن زيد التي جردها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قبيل وفاته ، وامضاها ابو بكر ، قد استفزت الروم ، فجمع الامبراطور هرقل جيشا كبيرا عسكر به جنوبي فلسطين ، فدعا ابو بكر المقاتلين من جميع ارجاء جزيرة العرب ، فلبوا الدعوة بحماس شديد ، وسرعان ما انفذ الجيوش نحو الشمال ، بعد ان عقد الألوية لاربعة من الامراء هم : ابو عبيدة بن الجراح ووجهته حمص ، وعمرو بن العاص ووجهته فلسطين ، ويزيد بن ابي سفيان ووجهته دمشق ، وشرحبيل بن حسنة ووجهته وادي الاردن . وامرهم ابو بكر ان يعين بعضهم

بعضا ، وان يكونوا جميعا تحت امرة ابي عبيدة ، وان يستقل عمرو بفتح فلسطين ، وان يمد الجيوش الاخرى ان دعت الحاجة الى ذلك .

انطلق عمرو بن العاص في طريق ايلياء حتى وصل الى فلسطين ، فلما علم هرقل بذلك اراد ان يشغل كل طائفة من المسلمين بطائفة من جنده الكثير ليضعف من قوتهم ، فعجل ابن العاص بارسال الف فارس داهم بهم عشرة آلاف من الروم ، وتمكنوا من قتل قائدهم فادخلوا الفزع في قلوب الاعداء ، واقتتل الفريقان وحلت الهزيمة بالروم فولوا الادبار.

ولما اصبح المسلمون اشرف عليهم عشرة صلبان تحت كل صليب عشرة آلاف ، فأقبل عمرو ورتب الجند وامرهم ان يقرأوا القرآن وجعل يحببهم في القتال ويرغبهم في ثواب الله وجنته ، فلما شاهدهم (روبيس) بطريق الروم انكسرت حميته واسقط في يده .

واشتبك الفريقان في القتال ، وحمل اصحابنا على العدو حملة منكرة وكان شعارهم : لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، يا رب انصر امة محمد (صلى الله عليه وسلم) . ولم تزل الحرب تضطرم نارها بين الفريقين الى الاصيل ، اذ اتى الله المسلمين النصر وولى الروم منهزمين والمسلمون في اعقابهم حيث حصدوا منهم خمسة عشر الف قتيل ، ولم يستشهد من اصحابنا سوى مائة وثلاثين .

وبينما كانت انتصارات جند الله تتوالى في العراق ، وصلت انباء الشام بأن ابا عبيدة لم يقو على مدافعة الروم ، فكتب الخليفة الى خالد بن الوليد بأن يسير حتى يأتي جموع الروم باليرموك ، فولى سيف الله المسلول اخاه المثنى بن حارثة جند المسلمين، وسار على رأس جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل اختار ان يقطع به الصحراء للوصول الى هدفه بأسرع وقت ، رغم ما ينطوي عليه ذلك من مجازفة تفوق التصور . وفجأة برز خالد وقواته في بصرى جنوبي الاردن ، وكان ابو عبيدة قد انفذ شرحبيل

بن حسنة اليها فلم يقو على هزيمة الروم ، فاستطاع خالد ان يستولي عليها بمعونة واليها رومانوس الذي اعتنق الاسلام .

وقد شجع استيلاء المسلمين على مدينة بصرى ، على محاصرة دمشق ، فارسل هرقل اربعة جيوش لمحاربة جيوش المسلمين الاربعة ، وغدا مركز الفاتحين صعبا واستشار قوادهم بعضهم بعضا ، فأشار عليهم عمرو بن العاص بالاجتماع في مكان واحد يواجهون به قوى الروم ، واختار اليرموك .

ولما علم هرقل بذلك جيّش الجيوش تحت قيادة القائد الارمني (ماهان) ، فسار في ثمانين الفا انضاف اليهم ستون الفا من نصارى العرب ، وكتب الى ابي عبيدة يعرض عليه الصلح ، فأبى ان يجيبه الى طلبه الا بعد ان يتم المسلمون فتح بلاد الشام وفلسطين .

وعندما قدم خالد بجيشه الى الشام ، رتب المقاتلين ، وجعل ابا عبيدة في القلب وعمرو بن العاص على الميمنة ويزيد بن ابي سفيان على الميسرة ، ثم دارت رحى الحرب بين الفريقين ، واشتركت النساء مع الرجال في القتال لصد هجمات العدو الذي اضطرهم الى التقهقر عدة مرات ... وبعد الهزائم التي لحقت بالروم في الادغال وعلى رؤوس الجبال ، جاء يوم الواقوصة الذي كتب فيه النصر لاصحابنا حيث سقط من جند الروم مائة وعشرين الفا...

الحمد لله ... رحت اردها مع نفسي وانا اتلقى النبأ العظيم .... بينما قدراتي تزداد تضاؤلا وانحسارا ، ووجع الروح يتناوشني بين الحين والحين في صيغة تساؤل معذب : لماذا لم تكن معهم يا سهيل ؟!

لكن ما يعزيني ويمنحني الصبر انهم يحققون المعجزات وينفذون الوعد الذي كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد منحه اصحابه الصابرين زمن محنة الخندق ، حيث اجتمع علينا الخوف والضيق والجوع والبرد والسهر والحصار .... وعنف الوثنية وغدر اليهود وتخذيل المنافقين.

كان(صلى الله عليه وسلم) ونحن نجهد في حفر الخندق ، يؤملنا بان خيولنا ستطأ في يوم قريب ديار العالم القديم ، وستتهاوى تحت وقع سنابكها عروش كسرى وقيصر ، وستمرغ باسيافنا انوف كانت تستعلي على الناس زيفا وخديعة وكذبا.

ها هم جندك واصحابك يمضون قدما صوب المدائن .. الى ايوان كسرى المتعالي في الفضاء لتحقيق الوعد النبوي الصادق .

وانا اتقلب بين همومي الصغيرة وهم الامة الكبير ، اتذكر لحظات الصدام الاول مع الشرك في معركة بدر .. الجيش الصغير الذي لم يكد يتجاوز الثلاثمائة مقاتل وهو يجابه طواغيت قريش الذين يفوقونه عدة وعددا ... فينتصر عليهم في معركة الفرقان..

الجدول الصغير صار نهرا .. دفقا متواصلا من الخير والعطاء ينطلق شمالا لكي يطهر الارض من رجس الشرك ويحرر العباد من قهر الطواغيت والارباب.

ولاول مرة رحت ادعو الله سبحانه ان يمد في عمري... ان يمنحني مزيدا من الاعوام ، فقط لكي تكتحل عيني بزوال دولتي الفرس والروم، وسقوط عروش كسرى وقيصر، وارتفاع راية التوحيد في مشارق الارض ومغاربها ، لكي تخرج الناس من ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام، ومن عبادة العباد الى عبادة الله وحده.

ورحت اردد مع نفسي ، وانا اغادر مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مستقبلا مطالع الفجر القادم في الافق الشرقي : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

انتهى

كتب للمؤلف

أ. الاعمال التاريخية

العنوان	الطبعة	الناشر
١. ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز	(الطبعة ٨)	دار ابن كثير – دمشق
٢. عماد الدين زنكي	(الطبعة ٣)	دار ابن كثير
٣. دراسة في السيرة	(الطبعة ١٧)	مؤسسة الرسالة – دار النفائس
٤. الحصار القاسي: ملامح مأساتنا في افريقيا	(الطبعة ٤)	دار ابن كثير
٥. التفسير الاسلامي للتاريخ	(الطبعة ٥)	دار العلم للملايين – بيروت
٦. نور الدين محمود: الرجل والتجربة	(الطبعة ٢)	دار القلم – دمشق
٧. الامارات الارتقية في الجزيرة والشام: اضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للصليبيين والتتر	(الطبعة ١)	مؤسسة الرسالة
٨. في التاريخ الاسلامي: فصول في المنهج والتحليل	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
٩. المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي: عصر ولاة السلاجقة في الموصل	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٠. ابن خلدون اسلاميا	(الطبعة ٣)	دار ابن كثير
١١. دراسات تاريخية	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير

١٢. حول اعادة كتابة التاريخ الاسلامي	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٣. المستشرقون والسيرة النبوية: بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر: مونتغمري وات	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٤. المنظور التاريخي في فكر سيد قطب	(الطبعة ١)	دار القلم – بيروت
١٥. حاضر المسلمين ومستقبلهم من منظور غربي	(الطبعة ١)	دار النفائس – بيروت
١٦. مدخل إلى التاريخ الإسلامي	(الطبعة ١)	المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء - بيروت
١٧. الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين	(الطبعة ١)	دار الفكر – دمشق
١٨. دليل التاريخ والحضارة في الاحاديث النبوية الشريفة (بالاشتراك مع المهندس حسن رزو)	(الطبعة ١)	المعهد العالمي للفكر الاسلامي – عمان
١٩. مدخل إلى الحضارة الإسلامية	(الطبعة ١)	المركز الثقافي العربي

ب. الاعمال الفكرية

١. لعبة اليمين واليسار	(الطبعة ٦)	دار ابن كثير
٢. تهافت العلمانية	(الطبعة ٦)	دار ابن كثير
٣. مقال في العدل الاجتماعي	(الطبعة ٥)	دار ابن كثير
٤. مع القران في عالمه الرحيب	(الطبعة ٣)	دار العلم للملايين

٥. افاق قرانية (الطبعة ٢) دار العلم للملايين

٦. كتابات على بوابة المستقبل (بالاشتراك مع الدكتور عبد الحليم عويس) (الطبعة ٣) دار ابن كثير

٧. مقالات اسلامية (الطبعة ٢) دار ابن كثير

٨. اضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار (الطبعة ٣) دار ابن كثير

٩. مدخل إلى موقف القران من العلم الحديث (الطبعة ٢) دار ابن كثير

١٠. العلم في مواجهة المادية: قراءة في كتاب (حدود العلم) (الطبعة ٤) دار ابن كثير

١١. مؤشرات اسلامية في زمن السرعة (الطبعة ٣) دار ابن كثير

١٢. حول اعادة تشكيل العقل المسلم (الطبعة ٦) دار ابن كثير

١٣. في الرؤية الإسلامية (الطبعة ٢) دار ابن كثير

١٤. حوار في المعمار الكوني (الطبعة ٢) دار ابن كثير

١٥. الإسلام والوجه الاخر للفكر الغربي (الطبعة ١) مؤسسة الرسالة

١٦. مدخل إلى اسلامية المعرفة (الطبعة ٤) دار ابن كثير

١٧. قالوا في الإسلام (الطبعة ٢) دار ابن كثير

١٨. رؤية اسلامية في قضايا معاصرة (الطبعة ٢) دار ابن كثير

١٩. القران الكريم من منظور غربي (الطبعة ١) دار الفرقان – عمان

٢٠. المرأة والاسرة المسلمة من منظور غربي (الطبعة ١) دار الفرقان

٢١. الرؤية الآن: في هموم فلسطين والعالم الاسلامي (الطبعة ١) منشورات فلسطين المسلمة لندن

٢٢. متابعات في الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة (الطبعة ١) دار الحكمة - لندن

حـ. الاعمال الادبية

١. الماسورون (مسرحية ذات اربعة فصول) (الطبعة ٣) دار ابن كثير

٢. في النقد الاسلامي المعاصر (نقد) (الطبعة ٥) دار ابن كثير

٣. فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر (دراسة) (الطبعة ٣) دار ابن كثير

٤. الطبيعة في الفن الغربي والاسلامي (دراسة) (الطبعة ٤) دار ابن كثير

٥. جداول الحب واليقين (شعر) (الطبعة ٣) دار ابن كثير

٦. معجزة في الضفة الغربية (مسرحيات ذات فصل واحد) (الطبعة ٢) دار ابن كثير

٧. خمس مسرحيات اسلامية (ذات فصل واحد) (الطبعة ٢) دار ابن كثير

٨. محاولات جديدة في النقد الاسلامي (نقد) (الطبعة ٢) دار ابن كثير

٩. الشمس والدنس (مسرحية ذات اربعة فصول) (الطبعة ٢) دار ابن كثير

١٠. مدخل إلى نظرية الادب الاسلامي (دراسة) (الطبعة ٣) دار ابن كثير

١١. الاعصار والمئذنة (رواية) (الطبعة ٢) دار ابن كثير

١٢. المغول (مسرحية ذات سبعة مشاهد) (الطبعة ٢) دار ابن كثير

١٣. العبور (مسرحيات ذات فصل واحد)	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٤. الفن والعقيدة (دراسة)	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٥. في النقد التطبيقي (نقد)	(الطبعة ١)	دار البشير – عمان
١٦. ابتهالات في زمن الغربة (شعر)	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٧. الغايات المستهدفة للادب الاسلامي (نقد)	(الطبعة ١)	دار الضياء – عمان
١٨. كلمة الله (قصص)	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
١٩. الرحيل الى اسطنبول (من ادب الرحلات)	(الطبعة ٢)	دار ابن كثير
٢٠. ريبورتاج (حوار في الهموم الاسلامية)	(الطبعة ١)	دار الحكمة
٢١. متابعات في دائرة الادب الاسلامي (نقد)	(الطبعة ١)	مؤسسة الرسالة